



الرئاسة العامة
لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
الإدارة العامة للتوعية والتوجيه

شرح حديث جبريل عليه السلام

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولشايخه

شرح حديث جبريل عليه السلام

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد : فقد أذنت للأخ عادل مرسى لطباعة شرح حديث
جبريل لتتم الفائدة منه - إنه شاء الله - وصحة الجميع

تصية
صالح بن فوزان الفوزان
١٤٢٩/٥/٢٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدِّمةُ النَّاشِر

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:
فَهَذَا شَرْحُ حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَامَ بِشَرْحِهِ شَيْخُنَا وَوَالِدُنَا الْعَلَّامَةُ الشَّيْخُ:

صَالِحُ بْنُ فَوْزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

وَكَانَ هَذَا الشَّرْحُ فِي دُرُوسٍ أَلْقَاهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ أَثْنَاءَ شَرْحِهِ عَلَى
الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ هُنَا؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا
طُلَّابُ الْعِلْمِ، وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ؛ حَتَّى سَمَّاهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ «أُمُّ
السَّنَةِ»^(١)، كَمَا فِي الْقُرْآنِ «أُمُّ الْقُرْآنِ»؛ لِأَنَّ جَمِيعَ السَّنَةِ تَعُودُ إِلَيْهِ؛ فَفِيهِ

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٥): «قال القرطبي هذا الحديث: يصلح أن يقال له: أم السنة؛ لما تضمنه من جمل علم السنة. وقال الطيبي لهذه النكتة: استفتح به البغوي كتابيه المصابيح، وشرح السنة، اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة؛ لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً. وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان ابتداء وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه» اهـ. وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٨ - ١٦٠)، وجامع العلوم والحكم (ص ٩٧)، وشرح الأربعين لابن دقيق العيد (ص ٣١)، وعمدة القاري (١/ ٢٩١).

بَيَّانُ الْعَقِيدَةِ، وَالْعَقِيدَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَزْكَانِ الْإِيمَانِ السُّنَّةِ، وَفِيهِ بَيَّانُ الشَّرِيعَةِ، وَذَلِكَ بِذِكْرِ أَزْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ، وَفِيهِ ذِكْرُ الْغِيَاثِ وَالْأَمَارَاتِ؛ بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ فِيهِ ذِكْرُ آدَابِ السُّلُوكِ وَالْعِبَادَةِ، وَفِيهِ صَلَاحُ تَوَجُّهِ الْقَلْبِ وَالْوَجْهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ، وَفِيهِ ذِكْرُ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتِهَا، وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ ذِكْرِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ وَدَلَالَاتِ ذَلِكَ.

فَهَذَا الْحَدِيثُ يَعُودُ إِلَيْهِ جُلُّ السُّنَّةِ، وَجَمِيعُ أَصُولِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

فَأَسْأَلَ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُعْزِلَ لِسَانَنَا الْمُثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامَ هُدًى وَرِشَادٍ، وَأَنْ يُعِزَّ بِهِ وَيُصْلِحَ، كَمَا أَسْأَلُهُ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَمَشَايِخِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَهُ تَحْتَ لِيَاءِ نَبِيِّهِ الْأَمِينِ، وَفِي زُمْرَةِ السَّابِقِينَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَأَنْ يَجْعَلَ لِي مِنَ الْخَيْرِ نَصِيبًا. وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عَادِلُ بْنُ مُحَمَّدٍ مُرْسِي رِفَاعِي
الرِّيَاضُ

فَجَرَ الْأَحَد: ٢٠/٥/١٤٢٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رِبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحِفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:
هَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ بَيَّنَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ،

(١) أخرجه مسلم (٨).

شرح حديث جبريل عليه السلام

٦

وَأَزْكَانَ الْإِيمَانِ، وَبَيَّنَ فِيهِ الْإِحْسَانَ، وَبَيَّنَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ بَيْنَ الدِّينِ كُلِّهِ، وَأَنَّ الدِّينَ مَرَاتِبُ، وَالنَّاسُ لِيُسُوا عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ فِي الدِّينِ، فَمِنْهُمْ: الْمُسْلِمُ، ثُمَّ الْمُؤْمِنُ، ثُمَّ الْمُحْسِنُ، وَهَذِهِ مَرَاتِبُ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَبَعْضُهَا أَوْسَعُ مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَحَدٍ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ حَسَبَ الْإِسْطِطَاعَةِ.

قَوْلُهُ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ»، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَجْلِسُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَيَسْتَرْشِدُونَ مِنْهُ، وَيَسْأَلُونَهُ عَنْ أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَفِي جَلْسَةٍ مِنْ جَلْسَاتِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي صُورَةٍ عَجِيبَةٍ، لَمْ يَكُونُوا يَأْلِفُونَهَا، كَمَا قَالَ: «إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ»، فَهَذَا مِنَ الْعَجَائِبِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَعَرَفُوهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ خَارِجِ الْبَلَدِ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ الْمَسَافِرَ يَكُونُ شَعْنًا، «أَشَعَثَ أَغْبَرَ»^(١) كَمَا فِي الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ السَّفَرَ يَقْتَضِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْتَنِي بِنَفْسِهِ أَوْ بِهِنْدَامِهِ أَوْ بِجِسْمِهِ، فَهَذَا الرَّجُلُ لَيْسَ غَرِيبًا وَلَيْسَ مُوَاطِنًا؛ لَأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ السَّفَرِ، وَلَيْسَ مُوَاطِنًا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي الْبَلَدِ لَعَرَفُوهُ، وَبَيَّنَ فِي الْأَخِيرِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَتَى بِهِذِهِ الصُّورَةَ.

وَكَانَ جِبْرِيلُ ﷺ يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَالِبِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ؛ لِأَنَّ بَنِي آدَمَ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَا الْمَلَكِ عَلَى خَلْقَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ، فَكَانَ يَأْتِي فِي صُورَةِ

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شرح حديث جبريل عليه السلام

٧

رَجُلٍ حَتَّى لَا يَنْفَرِ النَّاسُ مِنْهُ، وَلَا يَسْتَوْحِشُوا مِنْهُ، هَذَا هُوَ الْغَالِبُ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَظْهَرُ لِبَنِي آدَمَ فِي صُورَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ الْمَوْتِ أَوْ الْعَذَابِ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ أَوْ الْعَذَابُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - ظَهَرَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى صُورَتِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أَمَّا إِذَا جَاؤُوا فِي حَالَةِ الْأَمْنِ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِصُورَةٍ مَأْلُوفَةٍ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ أَقْدَرُهُمْ عَلَى التَّصَوُّرِ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَلَمْ يَرِ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ (١):
المرَّةُ الْأُولَى: فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ حِينَمَا اشْتَدَّ بِهِ الْكَرْبُ مِنْ أَدَى قَوْمِهِ، رَأَى جِبْرِيلَ فِي الْأَفْقِ عَلَى صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ جَاءَ يُطْمِئِنُّهُ وَيُصَبِّرُهُ عَلَى مَا يَلْقَى (٢).

المرَّةُ الثَّانِيَةُ: رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١٣]، أَمَّا فِي بَقِيَّةِ الْأَحْوَالِ فَكَانَ يَأْتِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ أَحْسَنِ الرِّجَالِ.

(١) أخرج البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له عن مسروق أنه سأل عائشة - رضي الله عنها - عن قول الله - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسْنِ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المراتين، رأته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قَوْلُهُ: «شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ» مِنَ النَّظَافَةِ، وَقَوْلُهُ: «شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ» يَعْنِي: فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ حِينَمَا يَحْضُرُ إِلَى مَجْلِسِ الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَمَّلَ، وَأَنْ يَأْتِيَ بِصُورَةٍ نَظِيفَةٍ جَمِيلَةٍ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ مُعَلِّمًا وَمُتَعَلِّمًا، وَمَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَأْتُونَ إِلَى مَجْلِسِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ مَجْلِسَ الْعِلْمِ مَجْلِسُ وَقَارٍ، وَاللِّقَاءُ بِالرَّسُولِ ﷺ وَاللِّقَاءُ بِالْعُلَمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْتِعْدَادٌ، وَإِجْلَالُ الْعُلَمَاءِ مَطْلُوبٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَجِلَّ الْعَالِمَ وَتَحْتَرِمَهُ لَمْ تَسْتَفِدْ مِنْ عِلْمِهِ، فَقَوْلُهُ: «فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ» فِيهِ آدَابٌ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مِنْهَا: أَوَّلًا: أَنَّهُ يَتَجَمَّلُ فِي هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ يَجْلِسُ أَمَامَ الْمَعْلَمِ مُقْبِلًا عَلَيْهِ لِيَتَلَقَّى مِنْهُ الْعِلْمَ، وَلَا يُعْرِضُ عَنْهُ، أَوْ يَلْتَفِتُ، أَوْ يَمْرَحُ، أَوْ يَنْشَغِلُ، بَلْ يَكُونُ مُقْبِلًا عَلَى الْمَعْلَمِ بِجِسْمِهِ وَبِفِكَرِهِ؛ لئَلَّا تَقْوَتْهُ فُرْصَةُ التَّعَلُّمِ.

قَوْلُهُ: «فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ» أَي: أَسْنَدَ جِبْرِيلُ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْ النَّبِيِّ ﷺ مُقَابِلًا لَهُ وَقَرِيبًا مِنْهُ، وَفِي هَذَا أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَقْرُبُ مِنَ الْمَعْلَمِ لِيَكُونَ الْفَائِدَةُ مُتَّصِلَةً، أَمَّا الْبَعِيدُ فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَسْمَعُ، وَإِذَا سَمِعَ قَدْ لَا يَسْتَوْضِحُ الصَّوْتِ، فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَيَسْتَوْضِحُ الصَّوْتِ تَمَامًا، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يُحَدِّثُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْرَبُونَ مِنْهُ وَقَدْ تَلَفَّيْهِمُ الْعِلْمَ عَنْهُ ﷺ (١).

(١) أخرجه الترمذي (٥٠٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢٨٢/٩)، وأبونعيم في الحلية (٢٣٦/٤)

من حديث ابن مسعود ؓ، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا». وفي إسناده محمد بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف. وللحديث شاهد عند

شرح حديث جبريل عليه السلام

= 9

قَوْلُهُ: «وَوَضَعَ كَفِّهِ» أَي: وَضَعَ جَبْرِيلُ كَفَّهُ «عَلَى فَخْذَيْهِ» أَي: عَلَى فَخْذَيْ جَبْرِيلَ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِصُورَةٍ هَادِيَةٍ مُؤَدِّيَةٍ، وَلَا يُكْثِرُ مِنَ الْحَرَكَاتِ أَوْ مِنَ الْاِلْتِفَاتِ أَوْ مِنَ الشَّوَاعِلِ الَّتِي تُشْغِلُهُ عَنِ تَلْقَى الْعِلْمِ.

ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّهُ إِذَا جَلَسَ وَاطْمَأَنَّ فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ، وَلَا يَسْأَلُ أَوَّلَ مَا يَأْتِي وَإِنَّمَا يَجْلِسُ أَوَّلًا مُتَأَدِّبًا ثُمَّ يَسْأَلُ، هَذِهِ صِفَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ، وَهَذِهِ آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَالِمٌ بِالْجَوَابِ، لَكِنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ لِيُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ، وَهَذَا فِيهِ التَّعْلِيمُ بِطَرِيقَةِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ؛ لِأَنَّهُ أَتَبَهُ لِلذَّهْنِ، فَتَسْأَلُ الطَّالِبُ أَوَّلًا ثُمَّ تَجِيبُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَّبِعَهُ، أَمَّا إِذَا أَلْقَيْتَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ انْتِدَاءً فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَتَّبِعُهُ، فَمِنْ طُرُقِ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ النَّافِعَةِ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ.

فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ» أَي: بَيِّنْ لِي حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ الْإِنْسَانُ يَنْتَسِبُ إِلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ يَقُولُ: أَنَا مُسْلِمٌ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ؛ إِذْ كَيْفَ يَعْمَلُ بِشَيْءٍ يَجْهَلُهُ؟! فَالْإِسْلَامُ لَا يَكْفِي فِيهِ الْاِتِّسَابُ مَعَ الْجَهْلِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ

= البخاري (٩٢١)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله».

شرح حديث جبريل عليه السلام

١٠

اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، هَذِهِ الْأَرْكَانُ الْخَمْسَةُ لِابْدُ مِنْ أَدَائِهَا مَعَ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ، وَمَا زَادَ عَلَى هَذِهِ الْخَمْسَةِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ مِنَ الْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فَإِنَّهُ مُكْمَلٌ لِهَذِهِ الْأَرْكَانِ، إِمَّا تَكْمِيلًا وَاجِبًا، وَإِمَّا تَكْمِيلًا مُسْتَحَبًّا، فَهَذِهِ الْأَرْكَانُ هِيَ الْأَسَاسَاتُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، ثُمَّ تَأْتِي بَقِيَّةُ الْأَعْمَالِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، أَمَّا إِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ هَذِهِ الْأَرْكَانَ أَوْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهَا فَلَنْ يَنْفَعَهُ مَا عَدَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ الْمُسْتَحَبَّاتِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْنِ عَلَى أَسَاسٍ، فَالْبِنَاءُ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ. فَهَذِهِ الْأَرْكَانُ لَيْسَتْ هِيَ كُلُّ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَرْكَانُهُ فَقَطْ وَدَعَائِمُهُ، وَإِلَّا فَالْإِسْلَامُ وَاسِعٌ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، فَالْإِسْلَامُ يَشْمَلُ فِعْلَ الْأَوَامِرِ وَتَرْكَ الْمَنْهِيَّاتِ، فَإِنْ نَقَصَ شَيْءٌ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ النِّقْصُ فِي الْأَرْكَانِ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ لَهُ إِسْلَامٌ، وَإِنْ كَانَ النِّقْصُ فِي غَيْرِهَا فَإِنَّهُ يَكُونُ إِسْلَامًا نَاقِصًا بِحَسَبِ مَا تَرَكَ، وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الذِّكْرُ﴾ أَمْشُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحَةِ كَافَّةً ﴿[البقرة: ٢٠٨] أَيْ: ادْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ كُلِّهِ، فَلَا تَأْخُذُوا بَعْضَهُ وَتَتْرَكُوا بَعْضَهُ، بَلْ يَأْخُذِ الْمُسْلِمُ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا يَسْتَطِيعُ، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى بَعْضِهِ وَيَقُولُ: هَذَا يَكْفِي.

(١) هذا الحديث ورد بألفاظ متقاربة في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو، وجابر، وأبي موسى رضي الله عنهم، فقد رواه البخاري برقم (١٠، ١١، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠، ٤١)، (٤٢).

شرح حديث جبريل عليه السلام

١١

وَالْإِسْلَامُ: هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ. هَذَا تَعْرِيفُهُ الْعَامُّ؛ كَمَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي (ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ) ^(١)، هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ، وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ هِيَ أَرْكَانُهُ وَدَعَائِمُهُ، فَلَيْسَتْ هِيَ كُلُّ الْإِسْلَامِ، بَلْ هِيَ مَبَانِيهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الْآتِي، قَالَ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» ^(٢) الْحَدِيثُ، فَهَذِهِ الْخَمْسُ هِيَ مَبَانِيهِ، أَيْ: قَوَاعِدُهُ وَأَسَاسَاتُهُ.

فَذَكَرَ أَنَّ الْإِسْلَامَ خَمْسَةُ أَرْكَانٍ، وَهِيَ:

شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، هَذِهِ الْأَرْكَانُ الظَّاهِرَةُ.

الرُّكْنُ الْأَوَّلُ: الشَّهَادَتَانِ؛ لِأَنَّهُ لَا تُغْنِي إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى، فَلَوْ شَهِدَ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَأَنْكَرَ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) فَإِنَّهُ لَا تَصِحُّ شَهَادَتُهُ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) وَلَمْ يَعْتَرِفْ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) لَمْ تَنْفَعُهُ شَهَادَتُهُ بِالرَّسَالَةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ جَمِيعًا:

* شَهَادَةُ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ وَمَعْنَاهَا: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ.

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٨١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٩)، ومؤلفات الإمام محمد بن

عبد الوهاب - رسالة ثلاثة الأصول (٦/ ١٣٧)، وعقيدة الفرقة الناجية (ص ١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

* وَشَهَادَةُ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) وَمَعْنَاهَا: إِفْرَادُ النَّبِيِّ بِالِاتِّبَاعِ وَالْاِقْتِدَاءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ مُبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّهَادَتَيْنِ التَّلَفُّظُ بِهِمَا فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِهِمَا. وَمَعْنَى (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، أَيْ: أَعْتَرَفْتُ وَأَوْقِنُ بَأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ (لَا) نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَ(إِلَهَ) اسْمُهَا مَبْنِيٌّ مَعَهَا عَلَى الْفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، وَالْخَبَرُ مُقَدَّرٌ تَقْدِيرُهُ (بِحَقٍّ)^(١)، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَا إِلَهَ بِحَقٍّ، وَلَيْسَ مَعْنَى (لَا إِلَهَ) أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ آلِهَةٌ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْآلِهَةِ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ نَفْيَ الْآلِهَةِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ، وَإِلَّا فَهَنَّاكَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ بَاطِلَةٌ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَمْوَاتَ وَالْقُبُورَ وَالْأَصْرَحَةَ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْبَقَرَ؛ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْهِنْدِ، بَلْ هُنَاكَ مَنْ يَعْبُدُ الْفُرُوجَ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فَالْآلِهَةُ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

و(الِإِلَهَ) مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ، أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ، فَيَنْفِي هَذَا كُلَّ مَعْبُودٍ بِالْبَاطِلِ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَعْبُودٌ بِالْبَاطِلِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، فَهَذَا مَعْنَى الشَّهَادَةِ، وَلَيْسَ تَقْدِيرُ الْخَبَرِ (مَوْجُودٌ)^(٢) مِثْلَ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ: لَا إِلَهَ مَوْجُودٌ.

(١) انظر: الدرر السنية (٢/ ٢٥٧).

(٢) انظر: الدرر السنية (٢/ ٢٦١).

شرح حديث جبريل عليه السلام

١٣

فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، فَالْإِلَهَةُ الْمَوْجُودَةُ كَثِيرَةٌ، وَكُلُّ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ يَعْبُدُونَ إِلَهَةً مُتَفَرِّقَةً، مُنْذُ حَدَثَ الشَّرْكُ فِي الْأَرْضِ وَإِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَالشَّرْكُ مَوْجُودٌ وَالْمَعْبُودَاتُ مَوْجُودَةٌ وَكَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ الْإِلَهَ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهُ الْأُلُوهِيَّةُ الْحَقَّةُ، وَأَمَّا مَا عَدَاهَا فَأُلُوهِيَّتُهُ بَاطِلَةٌ، وَمَعْبُودٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَهَذَا مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَهَذَا إِعْرَابُهَا عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ اللَّغَةِ^(١).

وَمَعْنَى (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) أَيُّ: أَعْتَرِفُ وَأَقِرُّ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِفْرَارِ بِرِسَالَتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ظَاهِرًا بِاللِّسَانِ، وَبَاطِنًا بِالْقَلْبِ، أَمَّا مَنْ يَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ وَيُنْكِرُ بِالْقَلْبِ فَهَذَا مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا إِنَّا شَهِدْنَا أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، كَاذِبُونَ فِي شَهَادَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ لَكَ بِالرَّسَالَةِ بِقُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا يَتْلَفُظُونَ بِذَلِكَ لِأَجْلِ مَطَامِعِ الدُّنْيَا وَالْعَيْشِ مَعَكُمْ، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]، يَعْنِي سِتْرَةً يَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَإِلَّا فَهُمْ كُفَّارٌ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِرِسَالَتِهِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَكَذَلِكَ الَّذِي يَعْتَرِفُ بِرِسَالَتِهِ بَاطِنًا وَيَأْبَى أَنْ يَنْطِقَ بِهَا ظَاهِرًا هَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَالْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ١١١ وما بعدها)، والدرر السنية (٢/ ٢٥٧).

إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿[الأنعام: ٢٣]، يَعْتَرِفُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، لَكِنْ مَنَعَهُمُ الْكِبَرُ وَمَنَعَهُمُ الْحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ لِإِلَهَتِهِمْ أَنْ يَشْهَدُوا بِرِسَالَتِهِ ﷺ.

أَيْضًا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، يَعْتَرِفُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ بِهِمْ، لَكِنْ جَحَدُوا هَذَا، وَلَمْ يَعْتَرِفُوا بِالْإِسْتِثْنَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أَيُّ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿كَأَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فَلَا يَكْفِي الْاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ بَاطِنًا فِي الْقَلْبِ مَعَ عَدَمِ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا يَعْتَرِفُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكِنْ أَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِالْإِسْتِثْنَاءِ، خَوْفًا عَلَى دُنْيَاهُمْ، أَوْ خَوْفًا عَلَى رِئَاسَتِهِمْ، أَوْ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ، أَوْ تَكْبُرًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ السَّيِّئَةِ.

ثُمَّ إِذَا شَهِدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَهُ، فَإِنْ شَهِدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَكِنَّهُ لَمْ يَتَّبِعَهُ، لَمْ تَصِحَّ شَهَادَتُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الفصل: ٥٠]، فَإِذَا لَمْ يُطِيعْهُ فِي شَيْءٍ فَهَذَا كَافِرٌ، وَإِنْ أَطَاعَهُ فِي أَشْيَاءَ وَلَمْ يُطِيعْهُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَهَذَا شَهَادَتُهُ نَاقِصَةٌ، عِنْدَهُ نَقْصٌ بِحَسَبِ مَا تَرَكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ طَاعَتِهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

[النساء: ٥٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

عَلَيْهِمْ حَفِيزًا ﴿[النساء: ٨٠]﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[آل عمران: ١٣٢]﴾ وَلَئِنْ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا ﴿[النور: ٥٤]﴾ فَتَارَةً يَذْكُرُ طَاعَتَهُ مَعَ طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَارَةً يَذْكُرُ طَاعَتَهُ وَخَدَهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ طَاعَتِهِ ﷺ وَاتِّبَاعِهِ، وَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ وَعَدَمِ الزِّيَادَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ، فَلَا يَأْتِي بِأَشْيَاءَ مِنَ الْعِبَادَاتِ لَمْ يُشَرَّعْهَا الرَّسُولُ ﷺ، قَالَ ﷺ: «وَأَيُّكُمْ وَمُخَدَّاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّاتٍ بِذَعَةٍ وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١)، وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

فَمِنْ مَعَانِي شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) تَرْكُ الْبِدْعِ وَالْمُخَدَّاتِ، وَالْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

ثُمَّ أَيْضًا لَا بُدَّ مِنْ تَصَدِيقِهِ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ^(٣)، فَلَوْ عَمِلَ الْعَبْدُ بِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمُنَافِقِينَ، فَهُمْ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ وَيُجَاهِدُونَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ ﷺ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَصَدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنَ الْمَغْيِبَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ، وَفِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، لَا بُدَّ مِنْ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (١٢٦/٤)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١٧٩/١) من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع - باب النجش (٣٥٦/٤) فتح ط. دار المعرفة، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٣١٧/١٣) فتح.

(٣) انظر: مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب (١٣٧/٦) ثلاثة الأصول - ضمن القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية.

تَضِدِّقِهِ وَعَدَمِ الشَّكِّ فِي شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي حَقِّهِ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وَكَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وَتَجِبُ طَاعَتُهُ وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِ، وَتَرْكُ الْبِدْعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ بِهَا ﷺ، فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ فَهُوَ شَرٌّ وَلَيْسَ بِخَيْرٍ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ يُرِيدُ بِهِ الْخَيْرَ وَيَقُولُ: هَذَا زِيَادَةٌ خَيْرٍ. نَقُولُ: لَا، هَذِهِ بِدْعَةٌ، وَالْبِدْعَةُ مَرْدُودَةٌ، وَهَذَا شَرٌّ، فَأَنْتَ بِزَعْمِكَ تَتَقَرَّبُ بِهَا لِلَّهِ وَهِيَ تُبْعِدُكَ عَنِ اللَّهِ.

فَهَذِهِ بَعْضُ مَعَانِي شَهَادَةِ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)؛ كَذَلِكَ الَّذِي يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ، كَحَالَةِ الْمُشْرِكِينَ الْيَوْمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْقُبُورَ وَالْأَصْرِحَةَ، هَؤُلَاءِ لَا تَصِحُّ شَهَادَتُهُمْ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ نَاقَضُوا بِالْشُرْكِ، فَهُمْ يَتْلَفُظُونَ بِ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَلَكِنَّ الْعَمَلَ عَلَى خِلَافِهَا، فَيَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِالْأَمْوَاتِ، فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَنَاقَضُونَ.

الرُّكْنُ الثَّانِي: إِقَامُ الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ» أَيْ: تُؤَدِّي الصَّلَوَاتِ الْحَنَسَ الْمَفْرُوضَةَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، مَا مَعْنَى تُقِيمُهَا؟ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: وَأَنْ تُصَلِّيَ، إِنَّمَا قَالَ: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ»؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ صُورَةَ الصَّلَاةِ فَقَطْ، فَتُقِيمُ الصَّلَاةَ بِأَنْ تَأْتِيَ بِهَا كَمَا جَاءَ

بِهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١)، فَالَّذِي رَأَاهُ بَعَيْنُهُ يَفْتَدِي بِهِ، وَالَّذِي بَلَغَهُ خَبْرُهُ وَأَحَادِيثُهُ الصَّحِيحَةُ يَمْتَثِلُ وَيُصَلِّي كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي بَلَغَتْهُ، هَذَا مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤَدِّي الصَّلَاةَ بِهَا، وَلَا يُزِيدَ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ يُنْقُصَ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: أَنْ يُصَلِّيَهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ لَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فَلَا يَخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يُصَلِّيَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا، وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَاةُ لَوْ قَتَلَتْهَا»^(٢)، أَمَا مَنْ يَتَصَرَّفُ وَيُصَلِّي عَلَى هَوَاهُ مَتَى مَا أَرَادَ وَمَتَى مَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ أَوْ فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، فَهَذَا صَلَاتُهُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ الصَّلَاةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَإِنَّمَا صَلَّى صَلَاةً عَلَى حَسَبِ هَوَاهُ. وَكَذَلِكَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: الْخُشُوعُ فِيهَا، وَحُضُورُ الْقَلْبِ، فَالَّذِي يُصَلِّي بِجِسْمِهِ وَلَكِنْ قَلْبُهُ غَائِبٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا وَحَضَرَ قَلْبُهُ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وَقَالَ: ﴿وَأَنَّمَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، يَعْنِي: الصَّلَاةُ ثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَيْهِمْ مُيسَّرَةً وَيَتَلَذَّذُونَ بِهَا، وَالْخُشُوعُ رُوحُ الصَّلَاةِ، وَصَلَاةٌ بِلاَ خُشُوعٍ كَجَسَدٍ بِلاَ رُوحٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ

(١) أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود ؓ.

صَلَّى فِي الظَّاهِرِ وَلَا يُؤْمَرُ بِالْإِعَادَةِ، لَكِنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا ثَوَابٌ، فَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَيْسَ مَعَهُ أَجْرٌ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضُرْ قَلْبُهُ فِيهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِكَثِيرٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِأَجْرٍ كَامِلٍ، وَذَلِكَ حَسَبَ خُشُوعِهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَمِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ صَلَاتُهَا فِي الْمَسَاجِدِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى الْأَعْيَانِ - يَعْنِي عَلَى الْأَشْخَاصِ - فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَقْدِرُ عَلَى حُضُورِ الْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، قَالَ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النَّدَاءَ فَلَمْ يَجِبْ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ»^(١)، وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يُصَلِّي فِي مَكَانِهِ أَوْ فِي بَيْتِهِ لِمَادَا شُرِعَ الْأَذَانُ؟ لِمَادَا شُرِعَ أَنْ يَقُولَ الْمُؤَذِّنُ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؟ يَعْنِي: تَعَالَوْا صَلُّوا مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي بُيُوتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ، أَوْ لَيْسَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، أَوْ لَيْسَ عِنْدَهُ مَسْجِدٌ فَلْيُصَلِّ فِي مَكَانِهِ، أَمَّا الَّذِي حَوْلَ الْمَسْجِدِ وَيَسْمَعُ الْأَذَانَ وَهُوَ مُعَافٍ وَآمِنٌ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِذَا صَلَّى فِي بَيْتِهِ.

الرُّكْنُ الثَّلَاثُ: إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَهِيَ حَقٌّ فَرَضَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ [الذاريات: ١٩]، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ ۞ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ [المعارج:

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٤١٥/٥)، والطبراني في الأوسط (٣١٤/٤)، والكبير (١٢٢٦٦)، والحاكم في المستدرک (٣٧٣/١)، والدارقطني (٤٢٠/١)، والبيهقي في الكبرى (٥٧/٣)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣٩/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٤، ٢٥، فَبِهِي حَقٌّ وَاجِبٌ وَلَيْسَتْ سُنَّةٌ أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ أَوْ تَبَرُّعًا^(١)، فَمَنْ أَدَاهَا بِطَيِّبِ نَفْسٍ قُبِلَتْ مِنْهُ، وَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَائِهَا فَإِنْ كَانَ مُنْكَرًا لَوْجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ كَانَ مُعْتَرِفًا بِوُجُوبِهَا وَلَكِنْ مَنَعَهُ الْبُخْلُ مِنْ إِخْرَاجِهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُ فَهَرًا وَيُعْزِّرَهُ وَيُؤَدِّبَهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ شَوْكَةٌ وَجُنُودٌ وَعِدَّةٌ يَمْتَنِعُ بِهِمْ، فَعَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يُجِيشَ الْجَيْشَ لِقِتَالِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ؛ كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه مَانِعِي الزَّكَاةِ فِي خِلَافَتِهِ^(٢)، أَمَّا إِذَا كَانَ يَجْحَدُ وَجُوبَهَا وَيَقُولُ: لَيْسَتْ الزَّكَاةُ وَاجِبَةً، وَالنَّاسُ أَخْرَارٌ، فَهَذَا يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ أَدَاءً إِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ الْأَدَاءَ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ، أَوْ قَضَاءً إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ الْأَدَاءَ وَلَهُ عُذْرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/٢٠٠-٢٠٤)، وتفسير ابن كثير (٤/٢٣٥، ٢٣٦)، وفتح الباري (٣/٣٣٧)، وفتح القدير (٥/٨٤).

(٢) أخرج البخاري (١٤٠٠، ١٤٥٦)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخِلَ أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق».

[١٨٥]، فَالْمَرِيضُ وَالْمَسَافِرُ يُفْطِرَانِ وَيَقْضِيَانِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الصِّيَامَ لِكِبَرٍ وَهَرَمٍ أَوْ لِمَرَضٍ مُزْمِنٍ فَإِنَّهُ يَفْدي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، كُلَّ يَوْمٍ يُطْعِمُ مَسْكِينًا فِدْيَةً عَنِ الصِّيَامِ، إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصُومَ لَا أَدَاءً وَلَا قَضَاءً^(١).

الرُّكْنُ الْخَامِسُ: حَجَّ بَيْنَ اللَّهِ الْحَرَامِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.
وَالْحَجُّ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ^(٢): الْقَضْدُ.

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ^(٣): فَهُوَ قَضْدُ الْبَيْنِ الْحَرَامِ لِأَدَاءِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ عِبَادَتَانِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَكِنَّ مَكَانَهُمَا وَمَحِلَّهُمَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَشَاعِرِ، فَلَوْ أَنَّ حَجَّ إِلَى غَيْرِ الْكَعْبَةِ، فَلَنْ يُقْبَلَ حَجُّهُ، وَإِذَا اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى قَبْرِ أَوْ إِلَى ضَرِيحٍ أَوْ إِلَى بَنَاءٍ أَوْ إِلَى شَجَرٍ فَإِنَّهُ يَزِنُّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَحُجُّ إِلَيْهِ إِلَّا بَيْنُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْبَيْنُ الْعَيْقِيُّ، فَتَوَدَّى مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ عِنْدَهُ وَحَوْلَهُ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَالْحَجُّ فِي زَمَنِ مَخْصُوصٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَأَمَّا الْعُمْرَةُ فَفِي كُلِّ السَّنَةِ لَيْسَ لَهَا وَقْتُ مُحَدَّدٍ.

(١) انظر: تفسير عبدالرزاق (١/ ٧٠)، وتفسير الطبري (٢/ ١٣٣ - ١٤٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٧ - ٣١٢)، والدر المنثور (١/ ٤٢٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٤٠)، ولسان العرب (٢/ ٢٢٦)، والقاموس المحيط (ص ٢٣٤).

(٣) انظر: المغني (٣/ ٨٥)، وفتح الباري (٣/ ٣٧٨)، وعون المعبود (٥/ ٩٩)، وتحفة الأحوذ (٣/ ٤٥١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، لَمَّا كَانَ الْحَجُّ يَحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَوُونَةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى سَفَرٍ، وَفِيهِ مَشَقَّةٌ، شَرَطَ اللَّهُ لَوْجُوبِهِ الْإِسْطَاعَةَ، فَلَا اسْتَطَاعَةَ تَكُونُ بِالْمَالِ، وَتَكُونُ بِالْبَدَنِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ بَدَنَهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ حَجٌّ، وَمَنْ اسْتَطَاعَ بِمَالِهِ وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ بَدَنَهُ فَإِنَّهُ يُؤَكِّلُ مَنْ يَحُجُّ عَنْهُ، وَلَمَّا كَانَ الْحَجُّ شَاقًّا وَبَعِيدًا الْمَكَانِ عَلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، يَسَّرَهُ اللَّهُ وَجَعَلَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْعُمْرِ مَعَ الْإِسْطَاعَةِ، وَمَا زَادَ عَنِ الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ فَإِنَّهُ تَطَوُّعٌ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ»^(١)، فَالْحَجُّ مَرَّةً وَاحِدَةً - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - هَذَا هُوَ الْفَرَضُ، وَمَا زَادَ عَنِ الْمَرَّةِ فَهُوَ تَطَوُّعٌ.

فَهَذِهِ أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةُ، وَالْحَجُّ مَعَهُ الْعُمْرَةُ؛ لِأَنَّ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ: «وَأَنْ تَحُجَّ وَتَعْتَمِرَ»^(٢)، وَالْعُمْرَةُ تُسَمَّى الْحَجَّ الْأَصْغَرَ. ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ»، فَقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فَالْإِيمَانُ: هُوَ هَذِهِ الْأَرْكَانُ الْبَاطِنَةُ.

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٩٨/١)، والنسائي في الصغرى (ص ٢٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/١)، والدارقطني في سننه (٢٨٢/٢)، والبيهقي في الكبرى (٣٤٩/٤)، وفي شعب الإيمان (٤٢٨/٣).

وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: التَّضْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا يَغْتَرِيهِ شَكٌّ (١).
 وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ: فَهُوَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ
 يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ (٢)، هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ
 وَالْجَمَاعَةِ، خِلَافًا لِلْمُرْجِئَةِ (٣) الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ هُوَ التَّضْدِيقُ
 بِالْقَلْبِ، أَوْ التَّضْدِيقُ بِالْقَلْبِ وَالتَّنْقِطُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ، وَلَا يَدْخُلُ الْعَمَلُ فِيهِ.
 هَذَا قَوْلٌ مَرْدُودٌ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا بِدُونِ الْعَمَلِ،
 حَتَّى وَلَوْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ، وَلَوْ نَطَقَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِالْعَمَلِ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ
 يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ذَكَرَ الْإِيمَانَ مَقْرُونًا
 بِالْعَمَلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذِكْرِ الْإِيمَانِ فَقَطْ، قَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحُجُرَات: ١٥].

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٦٩)، ولسان العرب (١٣/٢٦)، ومختار الصحاح (ص ١١).

(٢) انظر: العقيدة للإمام أحمد بن حنبل (ص ١١٧)، ولمعة الاعتقاد (ص ٢٣)، ومجموع

الفتاوى (٧/٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٨٤)..

(٣) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير؛ لأنهم أخرّوا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من

الرجاء؛ لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فِرَق

شَتَّى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ١٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٠).

وَسِتُونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ
وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ^(١)، هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ أَنْ الْإِيمَانَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ
واعتقاد؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هَذَا قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، «وَأَذْنَاهَا
إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ» وَهَذَا عَمَلٌ «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» وَهَذَا فِي
الْقَلْبِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَتَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَمَنْ تَرَكَ
الْعَمَلَ نَهَائِيًّا وَلَمْ يَعْمَلْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ وَإِمْكَانِيَّةِ الْعَمَلِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ
بِمُؤْمِنٍ، أَمَّا مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الْعَمَلِ، فَهَذَا قَدْ يَكُونُ كَافِرًا، وَقَدْ يَكُونُ نَاقِصَ
الْإِيمَانِ، فَإِذَا تَرَكَ الصَّلَاةَ فَهُوَ كَافِرٌ، كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ وَالآيَاتِ، أَمَّا إِذَا
تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ غَيْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا نَاقِصَ الْإِيمَانِ،
كَأَصْحَابِ الْكِبَايِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الْإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ وَالْإِيمَانِ فِي الْبَاطِنِ، فَمَنْ
اقتصر على الإسلام فقط دون الإيمان فهذا منافق، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ أَسْلَمُوا
فِي الظَّاهِرِ، وَصَارُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَعْمَلُونَ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ
لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيمَانٌ، فَهُمْ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. وَكَذَلِكَ مَنْ آمَنَ
بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُمَثِّلْ بِجَوَارِحِهِ وَلَمْ يَنْطِقْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لِأَنَّ
الْإِيمَانَ بِالْقَلْبِ فَقَطْ لَا يَكْفِي، وَإِنَّمَا الْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ هُوَ أَحَدُ دَعَائِمِ
الْإِيمَانِ، وَلَا بُدَّ مِنَ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ
يُؤْمِنُونَ بِقُلُوبِهِمْ، وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤْمِنُونَ بِقُلُوبِهِمْ بِصَحَّةِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ
ﷺ، وَيُصَدِّقُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكِنْ يُنْكِرُونَ هَذَا فِي ظَاهِرِهِمْ، قَالَ تَعَالَى:

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ عَمُ النَّبِيِّ ﷺ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بَأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا^(١)

فَهُوَ مُعْتَرِفٌ بِقَلْبِهِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ دِينَهُ أَزْكَى أَدْيَانِ الْخَلِيقَةِ، لَكِنْ
مَنْعَهُ مِنَ التَّضَرُّيحِ بِذَلِكَ وَالنُّطْقِ بِذَلِكَ مُجَامَلَةً قَوْمِهِ، لَوْ آمَنَ بِالرَّسُولِ
لَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِ قَوْمِهِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ هَذَا، مَنْعَتْهُ النَّخْوَةُ الْجَاهِلِيَّةُ وَالْحَمِيَّةُ
الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ أَنْ يُصَرِّحَ وَيُظْهِرَ مَا فِي قَلْبِهِ، حَتَّى وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ
يَقُولُ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَيَقُولُ لَهُ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ
مَعَهُ: «أَتَتْرُكُ دِينَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟» وَفِي النِّهَايَةِ قَالَ: «هُوَ عَلَى دِينِ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ»^(٢)، وَمَاتَ وَلَمْ يَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَعَ أَنَّهُ
مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ مُعْتَرِفٌ بِذَلِكَ، كَمَا فِي أَشْعَارِهِ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَالتِّي فِيهَا
التَّضَرُّيحُ وَالْإِقْرَارُ بَأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَقٌّ، وَأَنَّ دِينَ الْمُشْرِكِينَ بَاطِلٌ،
لَكِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ خَلْعُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ دِينُ قَوْمِهِ. فَهَذَا فِيهِ
أَنَّ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ قَدْ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْكُفْرِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - قَالَ

(١) انظر: البداية والنهاية (٤٢/٣)، وسمط النجوم العوالي (١/٣٩٤)، والإصابة في تمييز
الصحابه (٧/٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن رضى الله عنه.

تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعِينَةَ حِمَّةَ لِبُئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الفتح: ٢٦]، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُؤَثِّرُ عَلَى الدِّينِ الْحَقُّ شَيْئًا مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ، وَلَا يَخْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا ئِمْ، هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ.

الْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ اجْتِمَاعِ الْإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ، وَالْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، فَإِنْ انفَرَدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا سِتَّةٌ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْأَعْمَالِ فَهِيَ مُكَمَّلَاتٌ لِهَذِهِ السِّتَةِ أَوْ مُتَمَمَاتٌ لَهَا، كَالصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ خَارِجُ هَذِهِ السِّتَةِ فَهِيَ تَابِعَةٌ لَهَا وَمُكَمَّلَاتٌ لَهَا. الرُّكْنُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - بِأَن تَوْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ، وَتَوْمِنَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ:

• تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ.

• وَتَوْحِيدُ الْأَلُوْهِيَّةِ.

• وَتَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ - كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ -: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ الْإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ. فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، فَلَا يَكْفِي الْإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَشْمَلُ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِأَلُوْهِيَّتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَإِنْ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ.

فَالْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّذْيِيرِ وَالْإِحْيَاءِ
وَالْإِمَاتَةِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ،
وَهَذَا قُلٌّ مَنْ يَجْحَدُهُ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِنَّ كُلَّ الْخَلْقِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ يُقَرُّ
بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَالَ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وَقَالَ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]،
٨٧ وَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:
٣١]، فَهُمْ مُقَرَّرُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ
مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُمْ لَا يَجْحَدُونَ
هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، يُؤْمِنُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فَقَطْ، وَهَذَا لَا يَكْفِي، بَلْ
لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، أَيُّ: بِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا اللَّهُ جَلَّ
وَعَلَا، وَالْأُلُوهِيَّةُ تَعْنِي الْعُبُودِيَّةَ.

وَهَذَا هُوَ مُحِطُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَمَمِ وَالرُّسُلِ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْأَمَمِ يَعْتَرِفُونَ
بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، وَيَعْتَرِفُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي
تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَيَذْبَحُونَ لَهُ، وَيَنْذَرُونَ لَهُ،

شرح حديث جبريل عليه السلام

٢٧

وَيَسْتَعِثُونَ بِهِ، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْغَيْرُ صَنْمًا أَوْ شَجَرًا أَوْ حَجَرًا أَوْ قَبْرًا أَوْ حِنًا أَوْ إِنْسًا، فَهَذَا شِرْكُكَ فِي تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَكَذَلِكَ حَدَّثَ فِي الْقُرُونِ الْمَتَأَخَّرَةِ بَعْدَ الْقُرُونِ الْمَفْضَلَةِ مَنْ يَجْحَدُ تَوْحِيدَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، مِنْ جَهْمِيَّةٍ^(١)، وَمُعْتَرِلَةٍ^(٢)، وَأَشَاعِرَةٍ^(٣)، وَمَنْ سَارَ فِي رِكَابِهِمْ، يَجْحَدُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ:

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتِلَ سنة ثمان وعشرين ومائة، قتله سلم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص ١٠٨)، وفتح الباري (١٣/٣٤٥).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمتزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والتميز بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/٣٠-٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/١٤٢)، وسير الأعلام (٥/٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/٨).

(٣) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب

=

• فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْحَدُ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ .
 • وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَرُّ بِالْأَسْمَاءِ وَيُنْكِرُ الصِّفَاتِ .
 • وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَ الصِّفَاتِ .
 وَالْكُلُّ سَوَاءٌ، لَا بَدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا جَاءَ عَنْ غَيْرِ
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «وَمَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ
 وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ
 وَلَا تَمْثِيلٍ»^(١)، فَمَنْ جَحَدَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ أَوْ شَيْئًا مِنْهَا مَعَ الْعِلْمِ لَمْ
 يَكُنْ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ جَحَدَ قِسْمًا مِنْ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْدُورًا
 بِجَهْلٍ أَوْ تَقْلِيدٍ أَوْ تَأْوِيلٍ، فَهَذَا يَكُونُ ضَالًّا لَا كَافِرًا .
 الرُّكْنُ الثَّانِي: الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ،
 وَمِنْ جُنُودِهِ خَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنَ النُّورِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ
 مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٢) .
 وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَكٍ، وَالْمَلَكُ: هُوَ الرَّسُولُ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ رُسُلُ

للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا
 أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال
 الذهبي: «ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة». اهـ.

انظر: تاريخ بغداد (٣٤٦/١١)، وفيات الأعيان (٢٨٤/٣)، وسير الأعلام (٨٥/١٥)،
 وشذرات الذهب (٣٠٣/٢)، والبداية والنهاية (١٨٧/١١).

(١) انظر: اللعة لابن قدامة (ص ٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٨٧)، وبيان تلبيس الجهمية
 (٣١/١)، ومجموع الفتاوى (٢٦/٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٣٢)،
 والصواعق المرسلة (٤٢٦/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

شرح حديث جبريل عليه السلام

٢٩

مِنَ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - إِلَى عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وَهُمْ أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ كُلُّ صِنْفٍ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَمِنْهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ مُوَكَّلٌ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ^(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُوَكَّلٌ بِالْأَجْنَةِ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، يَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ يَكْتُبُهُنَّ^(٢)، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَىكُمْ لِحَظُونَ﴾^(٣) كِرَامًا كَنِينِينَ^(٤) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، فَالْمَلَائِكَةُ لَهُمْ أَعْمَالٌ مُوَكَّلُونَ بِهَا يَقُومُونَ بِهَا، وَهُمْ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِينَ لَا تَرَاهُمْ وَلَكِنَّا نُؤْمِنُ بِوُجُودِهِمْ، وَنُؤْمِنُ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ -

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «... من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إسرافيل، خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه، بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق، بين يديه لوح، فإذا أذن الله - عز وجل - في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرِبَ جبهته فينظر، فإن كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به، فقلت: يا جبريل، وعلى أي شيء أنت؟ قال: على الريح والجند، قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر، قلت: على أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأنفس».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود ؓ، أن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد».

جَلَّ وَعَلَا - أَتَهُمْ يَقُومُونَ بِهَا بِأَمْرِهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا كَمَنْ انْحَرَفَ فِي
 الْمَلَائِكَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَادَى بَعْضُهُمْ، كَالْيَهُودِ، يُعَادُونَ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ
 السَّلَامُ - وَيَقُولُونَ: جِبْرِيلُ عَدُوْنَا، وَلَوْ كَانَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ غَيْرَ
 جِبْرِيلَ لَأَمَنَّا بِهِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلَ فَنَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ؛
 لِأَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوْنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ
 عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٧)
 مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
 لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨] (١).

وَمِنَ الشَّيْعَةِ أَيْضًا مَنْ يُعَادِي جِبْرِيلَ تَأْتِرًا بِالْيَهُودِ، فَيَقُولُ: إِنَّ الرِّسَالَةَ
 لِعَلِيِّ وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ وَأَعْطَاهَا لِمُحَمَّدٍ. وَشَاعِرُهُمْ يَقُولُ: خَانَ الْأَمِينُ
 وَصَدَّهَا عَنْ حَيْدَرَةٍ.

وَمِنَ النَّاسِ - خُصُوصًا الْمَشْرِكِينَ - مَنْ يَقُولُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ -
 تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ
 الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور:
 ٣٩]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، ثُمَّ
 قَالَ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ
 الْحُسْنَى﴾ [النحل: ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٢٣) مَا لَمْ يَكُفْ

(١) انظر: تفسير عبدالرزاق (١/ ٥٢، ٥٣)، وتفسير الطبري (١/ ٤٣١-٤٣٦)، وتفسير ابن أبي
 حاتم (١/ ١٨٠)، وزاد المسير (١/ ١١٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٣٠)، وفتح القدير (٣/ ٧٧).

تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ [الصَّافَّات: ١٥٣-١٥٥]، فَإِذَا كُنتُمْ لَا تَرْضَوْنَ الْبَنَاتِ
لَأَنفُسِكُمْ وَتَكْرَهُوهُنَّ فَكَيْفَ تَنْسِبُوهُنَّ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؟ مَعَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ
يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَيَبَيِّنُ فُسَادَ قَوْلِهِمْ، كَمَا أَنَّ
النَّصَارَى يَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. فَنَسَبُوا لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - الْإِبْنَ،
وَالْمَشْرُكُونَ نَسَبُوا لَهُ الْبَنَاتِ، وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا
وَلَدًا؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الْوَالِدِ وَشَبِيهٌ بِالْوَالِدِ، وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَيْسَ لَهُ
شَرِيكٌ وَلَا شَبِيهٌ، وَهُوَ الْغَنِيُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَوْلَادِ،
إِنَّمَا هَذَا فِي الْبَشَرِ، وَالْمَخْلُوقَاتُ هِيَ الَّتِي بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَوْلَادِ.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابًا عَلَى
رُسُلِهِ، وَهِيَ مِنْ كَلَامِهِ وَوَحْيِهِ، وَفِيهَا شَرْعُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ
لَأَجْلِ بَيَانِ الْحَقِّ وَالنَّهْيِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَلَأَجْلِ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَهِيَ كُتُبٌ
كَثِيرَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، وَالَّذِي سَمَّى اللَّهُ مِنْهَا: التَّوْرَةَ وَالزَّبُورَ وَالْإِنْجِيلَ
وَالْقُرْآنَ وَصُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، فَتُؤْمِنُ بِالْكِتَابِ مَا سَمَّى اللَّهُ مِنْهَا وَمَا
لَمْ يُسَمِّ، وَأَعْظَمُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ، فَتُؤْمِنُ بِرُسُلِ اللَّهِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى
آخِرِهِمْ، مَنْ سَمَّى اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ مِنْهُمْ، تُؤْمِنُ بِهِمْ جَمِيعًا، فَمَنْ جَحَدَ
وَاحِدًا فَقَدْ جَحَدَ الْجَمِيعَ، وَيَكُونُ كَافِرًا، وَلَوْ آمَنَ بَبَعْضِهِمْ وَكَفَرَ بِبَعْضِهِمْ
يَكُونُ كَافِرًا، فَالَّذِي يُؤْمِنُ بِهِمْ وَيَكْفُرُ بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - كَالْيَهُودِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ وَيُنْكِرُ رِسَالَهَ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَالنَّصَارَى، فَهُوَ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، فَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ الْإِيمَانَ
بِالْبَعْضِ وَالْكَفَرُ بِالْبَعْضِ الْآخِرِ، هَذَا مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠، ١٥١].

وَأَوَّلُ الْمُرْسَلِينَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَأَدَمُ نَبِيٌّ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَبَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنْبِيَاءٌ، لَكِنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا عَبْدُوا الصَّالِحِينَ، وَآخَرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ إِيْمَانٌ مُجْمَلٌ، وَالْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِيْمَانٌ مُفَصَّلٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ نَبِيُّنَا وَرَسُولُنَا، فَتُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ.

الرُّكْنُ الْخَامِسُ: الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يُسَمَّى الْيَوْمُ الْآخِرَ لِأَنَّهُ بَعْدَ الدُّنْيَا، وَيُسَمَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِقِيَامِ النَّاسِ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُسَمَّى يَوْمَ الْبَعْثِ لِأَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيُسَمَّى النُّشُورَ، وَالنُّشُورُ هُوَ الْبَعْثُ، فَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ التَّصَدِيقُ بِحُصُولِهِ وَوُقُوعِهِ، ثُمَّ الْإِسْتِعْدَادُ لَهُ، فَلَا يَكْفِي أَنْ تُصَدَّقَ بِهِ وَتَجْزَمَ بِهِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ، وَتَقْدِيمِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَالْإِكْتِسَابِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَأَنْتَ تَسْتَعِدُّ لِهَذَا الْيَوْمِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي دُعَائِهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ إِلَّا مَنْ

آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٨٧-٨٩]، فَهُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٢١﴾

وَأَمْنُهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُفْنِيهِ ﴿عَبَسَ: ٣٤-٣٧﴾،
 وَفِي هَذَا الْيَوْمِ: ﴿بُصِّرُوا نَفْسَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِمْ بِبَنِيهِ﴾ ﴿١١﴾
 وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِّلَتْهُ إِلَى تَوْبِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا تُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ﴿١٥﴾
 [المعارج: ١١-١٥]، فَلَا يُنْجِيهِ مِنْ هَذَا إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَتَرَكَ الْعَمَلَ السَّيِّئَ.
 هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ
 بَعْثٌ وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَقَطْ. فَهَذَا كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ
 وَلِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، فَلَا شَكَّ فِي
 كُفْرٍ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ
 بَلَى وَرَبِّي لَابْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبِّرَنَّ يَمَاعِلَهُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فَاللَّهُ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ
 يُقْسِمَ بِرَبِّهِ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ عِبَادَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿زَعَمَ﴾ الزَّعْمُ هُوَ الْكَذِبُ، يَعْنِي:
 كَذَّبُوا فِي قَوْلِهِمْ هَذَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
 بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا
 الدَّهْرُ﴾ [الجن: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَبَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ
 تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
 وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

هَكَذَا مَقَالَةُ الْكُفَّارِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَلَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ
 إِلَّا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَيْفَ إِذَا مَاتَ النَّاسُ وَصَارُوا تُرَابًا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ؟ فَهَذَا
 مُسْتَحِيلٌ! ﴿قَالَ مَنْ يُعْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، سُبْحَانَ اللَّهِ! هُمْ
 مِنْ قَبْلُ كَانُوا غَيْرَ مُوجُودِينَ أَصْلًا، ثُمَّ خَلَقَهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، فَالَّذِي

خَلَقَهُمْ فِي الْبِدَايَةِ قَادِرٌ مِنْ بَابِ أُولَى عَلَى إِعَادَتِهِمْ، ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، قَالَ مَنْ يُخَيِّ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿[يس: ٧٨، ٧٩]، فَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِالرَّدِّ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ. وَأَيْضًا أُيُّهُمَا أَعْظَمُ: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَمْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ؟ لَا شَكَّ أَنَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فَالَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ مِنْ بَابِ أُولَى. ثُمَّ أَيْضًا اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، تَكُونُ الْأَرْضُ قَاحِلَةً جَرْدَاءَ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَإِنَّهَا تَتَحَرَّكُ بِالنَّبَاتِ، فَهَذَا الْحَبُّ الْمَيْتُ وَالْبَذْرُ الْمَيْتُ الْمَتَفَرِّقُ فِي الْأَرْضِ يَحْيَا وَيَنْبُتُ، وَيَكُونُ نَبَاتًا وَأَشْجَارًا مُثْمِرَةً وَزُرُوعًا وَنَخِيلًا وَأَغْنَابًا وَأَنْوَاعًا مِنَ النَّبَاتِ وَهِيَ كَانَتْ فِي الْأَوَّلِ مَيْتَةً، أَلَيْسَ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ فَهَذَا وَقَعُ يُشَاهِدُهُ النَّاسُ أَنَّ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الْيَابِسَةَ الْهَامِدَةَ الْخَاشِعَةَ إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَاءَ اخْضَرَّتْ وَازْدَهَرَتْ بِالنَّبَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿[الحج: ٥-٧]، فَهَذَا شَاهِدٌ يَرَاهُ النَّاسُ وَلَا يُنْكِرُونَهُ، مَنْ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إِحْيَاءِ هَذَا النَّبَاتِ؟ وَمَنْ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ هَذَا الْحَبِّ الْيَابِسِ الْوَرَقَ وَالْأَغْصَانِ وَالشَّمَارَ؟ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِذَا كَانَ يَبْعَثُ هَذَا النَّبَاتَ

بَعْدَ مَوْتِهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ مَنْ فِي الْقُبُورِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَأَيْضًا لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَعْثٌ وَجَزَاءٌ عَلَى الْأَعْمَالِ لَكَانَ خَلْقُ الْخَلْقِ عَبَثًا، كَيْفَ يَخْلُقُهُمْ وَيَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ أَوْ الْأَعْمَالَ الْكُفْرِيَّةَ ثُمَّ يَمُوتُونَ وَيُتْرَكُونَ؟ هَذَا لَا يَلِيْقُ بِعَدْلِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥، ١١٦﴾، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ هَذَا، فَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - لَا بُدَّ أَنْ يَبْعَثَ النَّاسَ وَيُمَيِّزَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَيُجَازِيَ الْمُؤْمِنَ بِإِيمَانِهِ، وَيُجَازِيَ الْكَافِرَ بِكُفْرِهِ، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿[ص: ٢٧، ٢٨]، كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ وَلَا يُبْعَثُونَ وَلَا يُجَازُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ؟ حَاشَا وَكَلَّا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ هَدَدَ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْعَصَاةَ بِأَنَّهُمْ سِيرَجَعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَيَحْأَسِبُونَ وَيُجَازُونَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَالْدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ، هَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى يُجَازَى فِيهَا الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَعْثٌ لَصَارُوا كُلُّهُمْ سَوَاءً الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا الْفَرْقُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

وَكَذَبُوا بِبَابِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٤﴾ [الرُّوم: ١٤-١٦]،
وَقَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، يَتَفَرَّقُونَ فِي الْبَعْثِ، أَمَّا
فِي الدُّنْيَا فَهُمْ سَوَاءٌ، يَعِيشُونَ كُلُّهُمْ، وَرُبَّمَا يَكُونُ الْكَافِرُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ
الْمُسْلِمِ مِنْ نَاحِيَةِ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ وَالصَّحَّةِ وَهُوَ كَافِرٌ، وَالْمُؤْمِنُ يُتَلَى
وَيَجُوعُ وَيَمْرُضُ وَيَعْرِضُ لَهُ الْأَشْيَاءُ الْمُؤْذِيَّةُ وَيَمُوتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؛
لِأَنَّ اللَّهَ ادَّخَرَ لَهُ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ، فَيُعْطِيهِ جَزَاءَ عَمَلِهِ فِي الْآخِرَةِ، لَا
يُمْكِنُ أَنْ يُضَيِّعَ عَمَلَهُ أَبَدًا.

فَهَذِهِ مِنْ أَدِلَّةِ الْبَعْثِ، وَهِيَ أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَأَدِلَّةُ الْبَعْثِ
كَثِيرَةٌ، لَكِنْ مَعَ هَذَا أَنْكَرَهُ الْكُفَّارُ وَالْمَلَاحِدَةُ، وَبَعْضُ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِهِ لَكِنْ
لَا يَسْتَعِدُّ لَهُ فَكَأَنَّهُ يُنْكِرُهُ.

وَالْمُرَادُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: مَا بَعْدَ الْمَوْتِ كُلُّهُ هُوَ الْيَوْمُ الْآخِرُ، فَإِذَا مَاتَ
الْإِنْسَانُ وَفَاضَتْ رُوحُهُ دَخَلَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا.
وَأَوَّلُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَسُويَ عَلَيْهِ التُّرَابُ
وَانْصَرَفَ عَنْهُ النَّاسُ «وَأِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَتُعَادُ رُوحُهُ
فِي جَسَدِهِ وَيَجْلِسَانِيهِ، وَيَسْأَلَانِيهِ مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟»^(١) ثَلَاثَةٌ
أَسْئَلَةٌ، فَإِنْ أَجَابَ عَنْهَا بِجَوَابٍ صَحِيحٍ نَجَا وَفَازَ وَأَفْلَحَ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
الْجَوَابَ خَابَ وَخَسِرَ، وَضَلَّ سَعْيُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ جَاءَ الْمَلَكَانِ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ وَنَحْنُ لَا نَرَاهُمَا؟

(١) حديث: سؤال الملكين، رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه،

ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

الْجَوَابُ: اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَمَّا أَنْتَ فَقَدْ غُيِبَ عَنْكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ، فَالْمَلَكَانِ يَأْتِيَانِهِ وَأَنْتَ لَا تَرَاهُمَا، وَهَلْ أَنْتَ تَرَى رُوحَكَ الَّتِي تَدْخُلُ فِي جَسَدِكَ؟ هَلْ تَرَى كُلَّ شَيْءٍ؟ هُنَاكَ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا تَرَاهَا وَهِيَ مَوْجُودَةٌ هَلْ تَرَى الْعَقْلَ الَّذِي يُمَيِّزُكَ عَلَى غَيْرِكَ؟ مَا كُلُّ شَيْءٍ لَا تَرَاهُ لَيْسَ مَوْجُودًا، هَذَا كَلَامُ الْمَادِّيِّينَ الطَّبَائِعِيِّينَ، أَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ يَتَسَعُّ إِيمَانُهُمْ لِكُلِّ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، وَلَا يَتَدَخَّلُونَ فِيهِ بِعُقُولِهِمْ. فَالْمَلَكَانِ يَأْتِيَانِهِ وَيَجْلِسَانِهِ وَيَسْتَنْطِقَانِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: «أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَوَسَّعُوا لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَافْتَحُوا لَهُ أَبَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيَرَى مَنَزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي»^(١)، فَيَصِيرُ قَبْرُهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نُشَاهِدُ هَذَا.

وَقَدْ يُشَاهِدُهُ بَعْضُ مَنْ يُطْلِعُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِإِلَازِمٍ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْمُرْتَابُ الَّذِي عَاشَ عَلَى الشُّكِّ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمُوتُ عَلَى الشُّكِّ، فَإِذَا سَأَلَاهُ وَقَالَ: «مَنْ رَبُّكَ؟» قَالَ: لَا أَدْرِي، «مَا دِينُكَ؟» قَالَ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ، «مَنْ نَبِيُّكَ؟» قَالَ: لَا أَدْرِي.

لَأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِهِ، «سَمِعْتُ النَّاسَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد في المسند (٢٨٧/٤)، والطبراني (١٠٢/١)، والبيهقي

في شعب الإيمان (٣٥٨/١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر: كتاب إثبات عذاب القبر للبيهقي.

يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ « مِنْ بَابِ الْمَجَارَاةِ لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الْمَنَافِقُ الَّذِي يَقُولُ مَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيُصَلِّي وَيُصُومُ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ، إِنَّمَا يَفْعَلُ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَدَارَاةِ وَمِنْ بَابِ التَّقِيَّةِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَعِيشَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ وَهُوَ لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ.

وَلَوْ كَانَ فَصِيحًا مُتَعَلِّمًا يَحْفَظُ الْمَثُونَ وَالْأَسَانِيدَ، فَإِنَّهُ فِي الْقَبْرِ يَتَلَعَّمُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَيَغِيبُ عَنْهُ الْجَوَابُ، وَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، وَلَكِنْ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَغْرِفَ هَذَا الشَّيْءَ وَأَعْتَقِدَهُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: «أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَافْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ»، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَيُضِيقُ قَبْرُهُ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّارِ، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ لَا تُقِمِّ السَّاعَةَ»؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ فَمَا بَعْدَهَا أَشَدُّ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَهَذَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كَمَا أَنَّهُمْ عَاشُوا عَلَى الْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِيمَانِ الصَّادِقِ فَإِنَّ اللَّهَ يُثَبِّتُهُمْ فِي الْقَبْرِ وَعِنْدَ السُّؤَالِ، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِجَابَةَ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١)، وَأَهْلِ السُّنَّةِ

(١) قال ابن أبي العز: وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به. انظر: شرح العقيدة

وَالْجَمَاعَةُ مُجْمِعُونَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُنْكَرْهُ إِلَّا الْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَالْعَقْلَانِيُونَ الْآنَ الَّذِينَ هُمْ أَفْرَاحُ الْمُعْتَزِلَةِ وَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ.

وَهَذَا الَّذِي يُلَاقِيهِ فِي الْقَبْرِ أَوَّلَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا نَجَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْقَبْرِ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ، فَأَوَّلُ بَوَايَةِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْقَبْرِ، وَالْدَّوْرُ ثَلَاثٌ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ -:

• دَارُ الدُّنْيَا، وَهِيَ دَارُ عَمَلٍ.

• دَارُ الْبَرْزَخِ، وَهُوَ الْقَبْرِ، وَهُوَ دَارُ انْتِظَارٍ.

• وَدَارُ الْقَرَارِ، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، ﴿وَأِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

[غافر: ٣٩]، فَيَسْتَقِرُّ النَّاسُ فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ، فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ.

فَالْآخِرَةُ تَبْدَأُ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَوَّلُ مَا يَكُونُ فِيهَا عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ نَعِيمُ الْقَبْرِ، فَالْقَبْرِ فَاصِلٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَحْطَّةٌ انْتِظَارٍ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ بِالْبَرْزَخِ؛ لِأَنَّ الْبَرْزَخَ هُوَ الْفَاصِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذِهِ الْأَجْسَامَ مِنْ قُبُورِهَا، فَتَقُومُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مُتَكَامِلَةَ الْخَلْقَةِ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَكَامِلِي الْخَلْقَةِ لَا يَضِيعُ مِنْهَا شَيْءٌ، فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ طَارَتْ الْأَرْوَاحُ مِنَ الصُّورِ - وَهُوَ الْقَرْنُ - وَدَخَلَتْ كُلُّ رُوحٍ فِي جَسْمِهَا ﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثُمَّ يُؤْمَرُونَ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْمُحْشَرِ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] يَعْنِي بِسُرْعَةٍ،

شرح حديث جبريل عليه السلام

٤٠

فَلَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ أَوْ يَخْتَفِي أَحَدٌ، كُلُّهُمْ يَسِيرُونَ إِلَى الْمَحْشَرِ، يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَيُسَاقُونَ إِلَى الْمَحْشَرِ، فَيَحْشَرُونَ فِيهِ، وَيَقْفُونَ فِيهِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى آخِرِهِمْ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا، حُفَاةً: لَيْسَ عَلَيْهِمْ نَعَالٌ، عُرَاةً: لَيْسَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، غُرْلًا: غَيْرَ مَخْتَوِينَ (١)، فَيَحْشَرُونَ فِي الْمَحْشَرِ بِمِقْدَارِ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ وَهُمْ وَقُوفٌ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يُفَعَّلُ بِهِمْ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَا يُحْسُ بِهَذِهِ الْمَشَقَّةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُحْسُ بِمَشَقَّةِ الْحَشْرِ هُوَ الْكَافِرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِيسِيرٍ [المذثر: ٨-١٠].

ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مِنَ الْمَحْشَرِ - بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ - إِلَى الْحِسَابِ، يُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، لَا يُتْرَكُ مِنْهَا شَيْءٌ، يُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَهُنَاكَ مَنْ لَا يُحَاسَبُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ (٢)، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَهُوَ الْعَرَضُ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَقْلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿[الانشقاق: ٨، ٩]، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ، قَالَ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ» (٣) وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ

(١) كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عرأة غرلاً...».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

شرح حديث جبريل عليه السلام

٤١

الثَلَاثَةُ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْمُؤْمِنُ يُحَاسَبُ حِسَابَ مُوَازَنَةٍ بَيْنَ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، أَمَّا الْكَافِرُ فَلَا يُحَاسَبُ حِسَابَ مُوَازَنَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَكِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابَ تَقْرِيرٍ، يُقَرَّرُ بِأَعْمَالِهِ حَتَّى يَعْتَرَفَ بِهَا.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ الْأَعْمَالُ - الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ - بِمِيزَانٍ حَقِيقِيٍّ لَهُ كِفَتَانِ^(١)، تُوضَعُ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]،

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]، يَعْنِي: مَوَازِينِ أَعْمَالِهِ، فَتُوضَعُ حَسَنَاتُهُ فِي كِفَّةٍ وَسَيِّئَاتُهُ فِي كِفَّةٍ، فَأَيُّهُمَا رَجَحَ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ جَزَاءَهُ بِمُوجِبِ ذَلِكَ مِنْ رُجْحَانِ الْحَسَنَاتِ أَوْ رُجْحَانِ السَّيِّئَاتِ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، بَلْ يُجَازِي الْإِنْسَانَ بِعَمَلِهِ.

وَهُوَ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ، وَالْمَعْتَرَلَةُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مِيزَانٌ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ، وَإِنَّمَا

(١) قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٤٧٥): «ثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات».

وقد ورد ذكر الكفتين في عدد من الأحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/١٠٢)، والحاكم في المستدرک (١/٢٢٨) وصححه، وفيه: «يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله». وروى أحمد (٢/١٦٩، ١٧٠) نحوه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد ورد ذكر الكفة في حديث البطاقة الذي رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرک (١/٦) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

مَعْنَاهُ إِقَامَةُ الْعَدْلِ، فَهُوَ مِيزَانٌ مَعْنَوِيٌّ مَعْنَاهُ الْعَدْلُ بَيْنَ الْعِبَادِ. وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ إِلَّا عُقُولُهُمْ، فَهُمْ يُنْكِرُونَهُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا الْمِيزَانَ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَهَذِهِ آفَةُ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعُقُولِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى عَقْلِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْعَقْلُ دَلِيلٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، هُنَاكَ أَشْيَاءٌ لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ، فَالْأُمُورُ الْمَغِيبَةُ لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ فَلَا تَحْكُمُ عَقْلَكَ فِيهَا، وَإِنَّمَا يُعْتَمَدُ فِيهَا عَلَى الدَّلِيلِ فَقَطْ، فَهَذَا وَجْهُ انْكَارِهِمْ لَهُ، وَعَلَى مَذْهَبِهِمُ الْبَاطِلُ أَنَّ الَّذِي لَا يُشَاهِدُونَهُ وَلَا يَرَوْنَهُ أَتَهُمْ يُنْكِرُونَهُ، أَوْ يُؤْوِلُونَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ، فَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ لَفْظَ الْمِيزَانِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿[الأعراف: ٨، ٩]﴾، فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾، فَلَا يُنْكِرُونَ لَفْظَ الْمَوَازِينِ، وَلَكِنْ يُفَسِّرُونَهَا وَيَحَرِّفُونَهَا عَنْ مَعْنَاهَا؛ كَمَا هُوَ حَالُهُمْ مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ الَّتِي تُخَالِفُ عُقُولَهُمْ يُحَرِّفُونَهَا عَنْ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ، أَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَيَكْلُونُ كَيْفِيَّتَهَا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

ثُمَّ هُنَاكَ تَطَايُرُ الصُّحُفِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرِيسْمِهِ﴾ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرِيسْمِهِ﴾ يَقُولُ يَلْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابَهُ ﴿[الحاقة: ١٩-٢٥]. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْأَهْوَالِ كُلِّهَا هُنَاكَ الصِّرَاطُ مَنْصُوبًا عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَالصِّرَاطُ: هُوَ الطَّرِيقُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالْقَنْطَرَةِ، عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، أَيْ عَلَى وَسْطِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ، وَهُوَ أَدَقُّ مِنْ

الشَّعْرَةَ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ، وَأَحَرُّ مِنَ الْجَمْرِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ فَوْقَ الصُّرَاطِ:

- فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرُكَّابِ الْإِبِلِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ.

وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾ (١٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا ۖ﴾ (٢٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۖ كُلُّ النَّاسِ يَرُدُّونَ جَهَنَّمَ، ﴿وَلِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ (٢١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿مريم: ٦٨-٧٢﴾، فَإِذَا تَجَاوَزُوا الصُّرَاطَ أَوْقَفُوا لِلْقَصَاصِ، يُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

الرُّكْنُ السَّادِسُ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ، وَالْقَدَرُ هُوَ سِرُّ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا^(١)،

(١) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٨١، ١٨٢)

قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكلموا في القدر، فإنه سر الله، فلا تفشوا الله سره». وانظر: تاريخ

وَالْقَدَرُ هُوَ مَا قَدَرَهُ اللَّهُ مِمَّا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، جَرَى الْقَلَمُ
بِالْمَقَادِيرِ، وَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١)، فَلَا
يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَدَرٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فَلَا مُورُ لَيْسَتْ عَبَثًا أَوْ
أَنْفًا، بَلْ هِيَ مُقَدَّرَةٌ مِنْ قَبْلُ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، قَوْلُهُ: ﴿كِتَابٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ
الْمَحْفُوظُ، وَقَوْلُهُ: ﴿قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ يَعْنِي: نَخْلُقُهَا وَنُوجِدُهَا.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ^(٢):
الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِعِلْمِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ
الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَيُّ: نَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ، عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ.
الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: مَرْتَبَةُ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، مَا شَاءَهُ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ
يَكُنْ.

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: مَرْتَبَةُ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ فِي أَوْقَانِهَا الْمَقَدَّرَةِ لَهَا، كُلُّ شَيْءٍ
فِي وَقْتِهِ، كُلُّ شَيْءٍ فِي حِينِهِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، فَلَا خَالِقَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

دمشق (٥١٣/٤٢)، وفيض القدير (٣٤٨/١)، وتحفة الأحوذى (٢٧٩/٦).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبوداود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن
الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وفيه: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟
قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

(٢) انظر: العقيدة الواسطية مع شرحها للمؤلف حفظه الله تعالى (ص ١٦٢-١٦٩).

[٦٢]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَات: ٩٦]، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

هَذِهِ مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أَيْ نَخْلُقَهَا، فَهِيَ مَكْتُوبَةٌ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ٢٢، ٢٣ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فَلَا تَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَ وَمَا نَقَصَ مِنْ مَالِكَ أَوْ أَوْلَادِكَ أَوْ مِمَّا تَحِبُّ، وَلَا تَفْرَحُ فَرَحَ الْأَشِيرِ وَالْبَطْرِ وَالْكَبِيرِ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْمَالِ، أَمَّا الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ، فَهَذَا مَحْمُودٌ، تَشْكُرُ اللَّهَ وَتَفْرَحُ بِمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، لَكِنْ فَرَحُ الْأَشِيرِ وَالْبَطْرِ هَذَا هُوَ الْمُنْعَوُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَفْرَحُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فَالْفَرَحُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- فَرَحٌ مَذْمُومٌ، وَهُوَ فَرَحُ الْكَبِيرِ وَالْبَطْرِ وَالْأَشِيرِ.
- وَفَرَحٌ مَحْمُودٌ، وَهُوَ الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ اسْتِرَاحَ، فَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَ وَلَا يَفْرَحُ بِمَا أُعْطِيَ فَرَحًا يُخْرِجُهُ عَنِ الْاِعْتِدَالِ، أَمَّا الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ

وَالْقَدَرِ فَإِنَّهُ يَجْزَعُ وَيَسْخَطُ إِذَا فَاتَهُ شَيْءٌ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ، أَوْ يَفْعَلُ فِعْلاً قَبِيحًا؛ كَلَطِمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَلَيْسَ بِرَادٍّ مَا فَاتَهُ وَلَوْ جَزَعٌ، وَلَوْ سَخَطٌ، وَلَوْ لَطَمَ خَدَّهُ، وَشَقَّ جَبِيئَهُ، فَلَنْ يُعِيدَ مَا فَاتَهُ، لَكِنْ تَحْصُلُ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ، وَيَقُوتُهُ الْأَجْرُ أَيْضًا، أَمَّا الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَيَضْبِرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ يَسْتَرِيحُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُصَبِّ بِالْجُبْنِ وَالْخَوْفِ، فَلَا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَيَنْحَسِرُ عَنِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْخَوْفِ، أَمَّا إِذَا آمَنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فَإِنَّهُ يَمْضِي فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَمْضِي فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَكِلُ الْأُمُورَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» (١).

فَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُكْسِبُ الْإِنْسَانَ قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ، وَقُوَّةَ الْإِيمَانِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُؤَدِّي

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٣٠٧/١)، وأبو يعلى في مسنده (٤٣٠/٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، وابن المستفاض في القدر (ص ١٣٠)، والحاكم في المستدرک (٦٢٤/٣)، وأبونعيم في الحلية (٣١٤/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧/٢).

بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْجَزَعِ وَالسَّخَطِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَأَيْضًا يُعْرِقُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَيُصَابُ بِالتَّرَدُّدِ وَالْأَوْهَامِ وَالْوَسَاوِسِ، فَلَا يُقَدِّمُ عَلَى شَيْءٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ كَذًا أَوْ يَكُونَ كَذًا، وَيَتْرُكُ الْأُمُورَ النَّافِعَةَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ كَذًا وَكَذًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَمَا قَضَاهُ اللَّهُ وَقَدَرَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ سَوَاءٌ خَرَجْتَ أَوْ لَمْ تَخْرُجْ، سَوَاءٌ فَعَلْتَ أَوْ لَمْ تَفْعَلْ، فَتَغْتَصِمُ بِاللَّهِ، وَتَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَتَتْرُكُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ لَا تَجَزَعُ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «اُخْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذًا وَكَذًا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»^(١)، فَإِذَا بَدَلَتْ السَّبَبَ وَلَمْ يَحْصُلِ الْمَقْصُودُ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُرْذِهِ، وَأَنْتَ لَا تَذَرِي رَبِّمَا أَنَّ الْخَيْرَ فِي عَدَمِ حُصُولِهِ، وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - حَكِيمٌ، فَأَنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَتَضْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ. كَذَلِكَ لَا يُصِيبُكَ الْأَسْرُ وَالْبَطَرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَتَتَزَنُّ فِي أُمُورِكَ، وَتَرْتَأِحُ فِي ضَمِيرِكَ، وَتَعِيشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عِيشَةَ الْمُؤْمِنِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ الْمَفُوضِ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْمَلُ وَتُسَبِّحُ، وَتُجَاهِدُ؛ لِأَنَّكَ تُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَتُؤْمِنُ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبَبٍ، وَلَا تُعْطَلُ الْأَسْبَابُ، وَلَكِنْ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْأَسْبَابِ، اجْمَعْ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَفِعْلِ الْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُفِيدُ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ الْخَوْفَ وَالْوَسَاوِسَ وَالْهُمُومَ، وَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُصِيبُ الْإِنْسَانَ بِالْخَوَرِ وَالضَّعْفِ وَالْوَسَاوِسَ وَالْأَوْهَامَ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُخِيفُهُ، فَهَذَا نَتِيجَةُ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مَعَ إِيْمَانِهِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ الْعِبَادَ لَهُمْ أَفْعَالٌ يَفْعَلُونَهَا بِاخْتِيَارِهِمْ، لَيْسُوا مُجْبَرِينَ عَلَيْهَا، فَهُوَ يُؤْمِنُ أَوْ يَكْفُرُ، أَوْ يُصَلِّي أَوْ يَتْرُكُ، أَوْ يَصُومُ أَوْ يُفْطِرُ، هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا، فَيُثَابُ عَلَى الطَّاعَاتِ وَيُعَاقَبُ عَلَى الْمَعَاصِي؛ لِأَنَّهَا أَفْعَالُهُ، فَهُوَ لَا يُعَاقَبُ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ إِنَّمَا يُعَاقَبُ عَلَى أَفْعَالِهِ هُوَ الَّتِي يَفْعَلُهَا بِاخْتِيَارِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَقُومَ لِيُصَلِّيَ الْفَجْرَ وَيَقْدِرُ أَنْ يَنَامَ وَيَتْرُكَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، يَقْدِرُ أَنْ يَصُومَ رَمَضَانَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَتْرُكَ صِيَامَ رَمَضَانَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَتْرُكَ نَفْسَهُ مَعَ الْفَوَاحِشِ، كُلُّ شَيْءٍ هُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِمَشِئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْطَاهُ الْإِرَادَةَ، وَأَعْطَاهُ الْمَشِئَةَ، وَأَعْطَاهُ الْاخْتِيَارَ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ لَا يَفْعَلَ؛ وَلِذَلِكَ الْمَكْرَهُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ، وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ؛ كَذَلِكَ الصَّبِيُّ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ حَتَّى يَبْلُغَ.

فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَذَا أَنَّهُ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ نُوْمِنُ بِأَنَّ الْعِبَادَ لَهُمْ أَفْعَالٌ وَلَهُمْ إِرَادَةٌ وَلَهُمْ مَشِئَةٌ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الْجَبَرِيَّةُ^(١)؛ إِنَّ الْعِبَادَ

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين

مُجْبَرُونَ وَمُحَرَّكَونَ فَقَطَ لَيْسَ لَهُمْ اخْتِيَارٌ، وَلَا كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، وَإِنَّمَا الْعِبَادُ يَسْتَقِلُّونَ بِأَفْعَالِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ يَقْدِرْتَهُمْ لَيْسَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَلَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. فَالْمُعْتَزَلَةُ وَالْجَبَرِيَّةُ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَهُمْ مُعْتَدِلُونَ فِي هَذَا، يَقُولُونَ: اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَى الْعِبَادَ الْاِخْتِيَارَ وَالْمُسِيئَةَ وَالْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْفِعْلِ أَوْ التَّرَكِّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ سَعَيْتُمْ لَشَيْءٍ ۖ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ۖ ۝۵ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۖ ۝۶ فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ۝۷ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ۝۸ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۖ ۝۹ فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٤-١٠]، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْجَبَرِيَّةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَاخْتِيَارَهُمْ، وَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ هُوَ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ الْاِغْتِدَالُ بَيْنَ الْجَبَرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْعِبَادَ هُمْ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ دُونَ قَدَرِ اللَّهِ كَالْمُعْتَزَلَةِ، فَهَذَا إِنْ كَانَ مُتَبَيِّنًا لِهَذَا الرَّأْيِ وَهُوَ يَعْلَمُ الْأَدْلَةَ، وَلَكِنَّهُ يُنْكِرُهَا وَيَأْخُذُ بِرَأْيِهِ، فَهَذَا كَافِرٌ بِلَا شَكٍّ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُقَلِّدًا أَوْ جَاهِلًا فَهَذَا يُبَيِّنُ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَ عَلَى الْكُفْرِ بِالْقَدَرِ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ، لَكِنْ إِنْ كَانَ جَاهِلًا أَوْ كَانَ مُقَلِّدًا فَهَذَا لَا يُكْفَرُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ لَهُ وَيُشْرَحُ لَهُ الْأَمْرُ، فَإِنْ رَجَعَ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ أَصَرَ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا.

وَلَا يَكْفِي أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَعْمَلَ وَلَا تَتَّكِلَ عَلَى

الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَتَقُولُ: إِنَّ قَدَرَ اللَّهِ لِي فَسَيَخْصُلُ وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْهُ فَإِنَّهُ لَا يَخْصُلُ وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْعَمَلِ، كَمَا يَقُولُهُ الْجَبْرِيتُ، فَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ، وَأَمَرَ بِالْعَمَلِ، وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا يَتَكَلَّفُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ وَيَتَحَرَّكُ وَيَطْلُبُ الْخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، وَهُوَ لَا يُجَازَى عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَإِنَّمَا يُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ، وَعَلَى كَدِّهِ وَكُسْبِهِ، وَعَلَى إِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ وَقَضِيهِ، فَهُوَ يُحَاسَبُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيُجَازَى عَلَى أَعْمَالِهِ، فَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا فَشَرٌّ.

هَذِهِ هِيَ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ، وَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانُ وَمَرْتَبَاتُهُ عَظِيمَتَانِ مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا - بَانَ ذِكْرُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ - فُسِّرَ الْإِسْلَامُ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَفُسِّرَ الْإِيمَانُ بِأَعْمَالِ الْقَلْبِ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الْأَنْزَاب: ٣٥]، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا وَخُدَّ دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ، فَإِذَا ذُكِرَ الْإِسْلَامُ وَخُدَّ دَخَلَ فِيهِ الْإِيمَانُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِسْلَامًا صَحِيحًا إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَإِذَا ذُكِرَ الْإِيمَانُ وَخُدَّ دَخَلَ فِيهِ الْإِسْلَامُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِيمَانًا صَحِيحًا إِلَّا بِالْإِسْلَامِ، فَلَا بُدَّ مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ، وَلَا يَنْفَعُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ، فَلَا إِسْلَامَ بِدُونِ إِيمَانٍ، وَلَا إِيمَانَ بِدُونِ إِسْلَامٍ، يَعْني: لَا تَكْفِي الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ عَنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، وَلَا تَكْفِي أَعْمَالُ الْقَلْبِ عَنْ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا افْتَرَقَا فِي الْمَعْنَى، فَيُفَسَّرُ الْإِسْلَامُ بِكَذَا، وَيُفَسَّرُ الْإِيمَانُ بِكَذَا، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا فَقَطَّ

دَخَلَ فِيهِ الْآخِرُ^(١).

وَيَأْتِي حِينَئِذٍ حُكْمُ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ دُونَ الشِّرْكِ، هَلْ يُقَالُ لَهُ: مُسْلِمٌ أَوْ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، أَوْ لَا يُقَالُ: مُسْلِمٌ وَلَا مُؤْمِنٌ؟^(٢) أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَذْهَبِ الْحَقِّ أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، لَكِنَّهُ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، فَالْإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَدِلَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا وَاحِدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَالَ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ

أَهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مزيم: ٧٦]، فَالْإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعَاصِي حَتَّى يَصِلَ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ ﷺ: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلُهُ، وَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانِ»^(٣)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَكُونُ ضَعِيفًا، وَيَكُونُ قَوِيًّا، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٤). فَدَلَّ عَلَى أَنَّ

(١) انظر: كتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى (٢٥٩/٧)، وفتح الباري (١١٥/١)، وعمدة القاري (١٩٦/١).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مع شرحها للمؤلف حفظه الله (ص ١٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) سبق تخريجه (ص ٢٢).

الإِيمَانُ فِيهِ أَعْلَى، وَفِيهِ أَدْنَى.

بِخِلَافِ الْمُرْجِيَّةِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: الإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا تَدْخُلُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْقَلْبِ فَقَطْ، فَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ بِخِلَافِ الْأَدِلَّةِ.

وَعَلَى الْعَكْسِ الْحَوَارِجُ^(١)، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: مُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ الَّتِي دُونَ الشَّرِكِ كَافِرٌ لَيْسَ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ. فَيَسْلُبُونَهُ الإِيْمَانَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيَجْعَلُونَهُ كَافِرًا وَمُخَلَّدًا فِي النَّارِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ يَسْلُبُونَهُ الإِيْمَانَ نَهَائِيًّا، وَالْمُرْجِيَّةُ يُعْطُونَهُ الإِيْمَانَ كَامِلًا، هَذَا تَنَاقُضٌ بَيْنَهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ وَأَهْلُ الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الإِيْمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَيْسَ إِيْمَانُ النَّاسِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ الإِيْمَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمَانِ.

وَالْمُعْتَرِلةُ جَاءُوا بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ، فَقَالُوا: لَا نَقُولُ إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ. فَمِنْ أَصُولِ مَذْهَبِهِمُ: الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، أَمَّا إِذَا مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ فَهُمْ مِثْلُ الْحَوَارِجِ يَقُولُونَ: مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ. فَيَجْتَمِعُونَ مَعَ الْحَوَارِجِ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَأَحْدَثُوا لَهُمْ مَذْهَبًا لَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي عليه السلام حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري عليه السلام. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبُ الْخَوَارِجِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبُ الْمَرْجِيَّةِ أَيْضًا، فَيَقُولُونَ: هُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ. هَلْ هُنَاكَ مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ؟ يُمْكِنُ هَذَا فِي الْمَجْنُونِ وَالصَّغِيرِ، أَمَّا الْبَالِغُ الْعَاقِلُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢٦]، وَلَمْ يَقُلْ: وَمِنْكُمْ مَنْ هُوَ لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا بِمُؤْمِنٍ، فَهَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ وَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ الضَّلَالُ، فَمَنْ تَرَكَ الْحَقَّ فَإِنَّهُ يُبْتَلَى بِالْمُتَنَاقِضَاتِ، وَيُبْتَلَى بِالْبَاطِلِ، وَيَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ.

فَهَذِهِ أُمُورٌ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا؛ لِأَنَّهَا مَحَطُّ الْجِدَالِ وَالْكَلامِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ مُخَالِفِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ: الْخَوَارِجِ وَالْمَرْجِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَغَيْرِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ»، وَالْإِحْسَانُ هُوَ الْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا، وَمَعْنَى الْإِحْسَانِ: إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِتْمَامُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وَإِحْسَانُ الْعَمَلِ إِتْمَامُهُ وَإِتْقَانُهُ، وَإِحْسَانُ الصَّنْعَةِ إِتْمَامُهَا وَإِتْقَانُهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: أَنْتَ تَحْسِنُ كَذَا أَوْ لَا تَحْسِنُ؟ يَعْني هَلْ تَعْرِفُ هَذَا الشَّيْءَ تَمَامًا أَوْ أَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ.

وَالْإِحْسَانُ يَكُونُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَكُونُ الْإِحْسَانُ بَيْنَ النَّاسِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَبِذَلِ الْخَيْرِ، وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَعْلِيمِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَإِحْسَانُ الْعَمَلِ: إِتْقَانُهُ بِأَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ، وَلَيْسَ فِيهِ بِدْعَةٌ،

فَإِذَا كَانَ فِي الْعَمَلِ بِدْعَةٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ إِحْسَانِ الْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وَقَالَ: «وَأَيَّاكُمْ وَمُخَدَّنَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّنَةٍ بِدْعَةٌ»^(٢)، فَإِحْسَانُ الْعَمَلِ إِخْلَاصُهُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمُوَافَقَتُهُ لِلسُّنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، فَقَوْلُهُ: «أَسْلَمَ وَجْهَهُ» بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، «وَهُوَ مُحْسِنٌ» أَيُّ: مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَتَّقَبَّرْ إِلَى اللَّهِ بِالْبِدَعِ وَالْمُخَدَّنَاتِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: الْإِحْسَانُ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ مُوقِنًا بِهِ مُؤْمِنًا بِهِ تَمَامَ الْإِيمَانِ حَتَّى كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِبَصَرِكَ، مِنْ شِدَّةِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يُرَى لَا يُشَكُّ فِيهِ، فَعِنْدَمَا تَرَى الْجِدَارَ لَا تَشَكُّ فِيهِ، أَوْ تَرَى الْبَابَ لَا تَشَكُّ فِيهِ أَبَدًا، فَالْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - كَأَنَّكَ تُشَاهِدُهُ بِعَيْنِكَ مِنْ قُوَّةِ إِيمَانِكَ وَبِقِيَمَتِكَ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَا اللَّهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ قُوَّةَ يَسْتَطِيعُونَ بِهَا أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ، أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَا أَحَدَ يَرَى اللَّهَ مُعَايَنَةً، إِنَّمَا يَرَاهُ بِقَلْبِهِ وَإِيمَانِهِ وَبِقِيَمَتِهِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ.

لِهَذَا لَمَّا سَأَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾،

(١) سبق تخريجه (ص ١٥).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٥).

قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَا اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَا اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ اخْتَجَبَ عَنْ عِبَادِهِ بِالنُّورِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «حِجَابُهُ النُّورُ»^(١)، فَلَا أَحَدٌ يَرَى اللَّهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُكْرِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَكَمَا أَنَّهُمْ عَبْدُوهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ رُؤْيَا لَهُ، وَإِنَّمَا آمَنُوا بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُقَرِّ عِيُونَهُمْ بِأَن يَتَجَلَّى لَهُمْ وَيَرَوْنَهُ عَيْنًا بِأَبْصَارِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢)، أَمَّا الْكُفَّارَ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ يَخْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ يُخْجَبُونَ عَنِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهَذَا الْأَدِلَّةُ، فَقَوْلُهُ: «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا مُعَايَنَةً، وَإِنَّمَا يَرَى فِي الْقَلْبِ وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ الَّذِي لَا يَخَالِفُهُ شَكٌّ، وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ.

وَبَعْدَهَا مَرْتَبَةٌ قَالَ فِيهَا ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» يَغْنِي: لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْيَقِينِ «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أَي: تُؤْمِنُ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) تواترت الأحاديث الصحيحة التي تثبت رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، منها ما أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبدالله البجلي ﷺ قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»، ومنها حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

أَقْلُ مِنَ الْأُولَى، لَكِنَّهَا دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ، فَتَعْبُدُهُ مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَيَرَاكَ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِكَ، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» يَعْنِي: اعْتَقِدْ بِقَلْبِكَ وَاسْتَخْضِرْ أَنَّ اللَّهَ يَرَاكَ وَيَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ وَلَا شَكَّ، وَهِيَ تُسَمَّى: مَرْتَبَةُ الْمُرَاقَبَةِ - مُرَاقَبَةِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَلَكِنَّهَا أَقْلُ مِنَ الْأُولَى، فَالْإِحْسَانُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ هُوَ مَا بَيَّنَّهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ؛ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، إِمَّا الْيَقِينُ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَبْدَ كَأَنَّهُ يَرَى اللَّهَ، أَوْ الْيَقِينُ الَّذِي يَسْتَخْضِرُ بِهِ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَمُشَاهِدٌ لِأَعْمَالِهِ، فَلَا يَنْحَرِفُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَإِذَا انْحَرَفَ أَوْ أَخْطَأَ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ مَعْصُومًا، وَلَكِنْ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ مُخَالَفَةٌ فَإِنَّهُ يُبَادِرُ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَلَا يَأْخُذُهُ الْقُنُوطُ وَالْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَا يَتَلَاَعَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَيَاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ.

فَذَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يَتَفَاضَلُ وَأَنَّ بَعْضَهُ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ، فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهِ هِيَ الْإِسْلَامُ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: إِسْلَامٌ مَعَهُ إِيمَانٌ، سَوَاءٌ كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، وَهَذَا إِسْلَامُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الصَّحِيحُ الَّذِي يُثَابُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي مَعَهُ إِيمَانٌ يُصَحِّحُهُ وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ مُنَافِقُونَ، لَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَكَمَّلْ عِنْدَهُمُ الْإِيمَانُ، وَهُمْ ادَّعَوْا مَنَزِلَةَ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا حِينَئِذَا قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فَلَوْ قَالُوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾. لَكَانَ هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ السَّلِيمُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، ثُمَّ قَالَ:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (لَمَّا) لِلْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَيْسَ مَوْجُودًا الْآنَ وَلَكِنَّهُ سَيُوجَدُ، فَاللَّهُ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّ الْإِيمَانَ سَيَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَقْوَى إِيْمَانُهُمْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَعْجَلُوا وَقَالُوا: ﴿أَمَّا﴾ فَهُمْ ادَّعَوْا مَنَزِلَةً لَمْ يَصَلُوا إِلَيْهَا؛ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ اللَّائِقَ بِهِمْ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُكْمَلُ نَفْسُهُ وَيَدْعِي شَيْئًا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، قَالَ: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، بَلْ قَالَ: ﴿وَلَمَّا﴾ وَفَرَّقَ بَيْنَ (لَمَّا) وَبَيْنَ (لَمْ)، (لَمْ) لِلنَّفْيِ الْمَطْلَقِ، أَمَّا (لَمَّا) فَهِيَ لِلنَّفْيِ الْمَوْقَّتِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ، لَمَّا كَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ يَبْدَأُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَنَهَايَةِ الدُّنْيَا، فَقِيَامُ السَّاعَةِ هُوَ نَهَايَةُ الدُّنْيَا، وَبِدَايَةُ الْآخِرَةِ، فَهُوَ الْأَجَلُ الَّذِي صَرَّبَهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِهَذِهِ الْحَيَاةِ، يَنْتَهِي ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ، وَالْإِيمَانُ بِذَلِكَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ شَكَّ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ، أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ جَحَدَ قِيَامَ السَّاعَةِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنَا مَبْعُوثٌ بَلٌّ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ

بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وَلَا يَكْفِي أَنْ الْإِنْسَانُ يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلَ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ، فَيَعْمَلَ الصَّالِحَاتِ وَيَتُوبَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَسْتَعِدُّ لِهَذَا الْيَوْمِ، هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ، أَمَّا مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَسْتَعِدُّ وَلَا يَعْمَلُ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الْإِيمَانِ، وَقِيَامُ السَّاعَةِ وَتَوْقِيتُهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، فَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ الْمَلَائِكَةَ، وَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ الرُّسُلَ؛ بَلْ إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - أَخْفَى

عِلْمُهُ عَنِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلنَّاسِ مَصْلَحَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ،
 إِنَّمَا الْمَصْلَحَةُ فِي الْإِيمَانِ بِقِيَامِهَا وَالِاسْتِعْدَادِ لَهَا، هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ، وَأَمَّا
 وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ فَهَذَا إِلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي آيَاتٍ
 كَثِيرَةٍ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
 السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]،
 وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٤٤)
 ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّلُهَا لَوَاقِحُهَا أَوْ غَشِيَةً أَوْ صُحُفًا﴾ [النازعات:
 ٤٢-٤٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
 وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
 خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، فَعِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ
 أَنْ يَقُولَ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ فِي وَقْتٍ كَذَا وَيَعْتَمِدُ عَلَى حِسَابَاتٍ وَعَلَى
 خُرَافَاتٍ وَعَلَى أَوْهَامٍ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْمَدَجِّلِينَ وَالْمُنْتَطِعِينَ، فَهَذَا مِنَ
 التَّكْلِيفِ الَّذِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذَا فَهُوَ كَذَّابٌ؛ لِأَنَّهُ
 لَا يُمَكِّنُ أَنَّ اللَّهَ يَحْجُبُ عِلْمَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَيَأْتِي أَحَدٌ يَعْرِفُهُ أَبَدًا.

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، بَلِ الْحِكْمَةُ أَنْ تَسْأَلَ
 عَمَّا تَعْمَلُ، وَكَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِهَذَا الْيَوْمِ، هَذَا هُوَ الَّذِي لَكَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ؛
 وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ ﷺ: «مَا
 الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أَيُّ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ، كُلُّنَا لَا نَعْلَمُ مَتَى
 قِيَامُ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ سَيِّدُ الْمَلَائِكَةِ، وَمُحَمَّدٌ
 ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ لَا يَعْلَمَانِ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَكَيْفَ يَأْتِي مَنْ يَدَّعِي

هَذَا؟ فَهَذَا فِيهِ أَنْ عِلْمَ أَوْ تَوَقُّيتَ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا» وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، «بِاعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» وَهُوَ جِبْرِيلُ، أَيْ كُلُّنَا سَوَاءٌ لَا نَعْرِفُ هَذَا، وَهَذَا تَصْدِيقٌ لِلْقُرْآنِ فِي أَنْ عِلْمَ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. وَفِي هَذَا أَنَّ مَنْ سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ فَإِنَّهُ يَرْدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَتَخَرَّصُ فِيهِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا» أَيْ عِلَامَاتِهَا، الْعِلَامَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ مَوْجُودَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [مُحَمَّدٌ: ١٨]، أَيْ عِلَامَاتِهَا، الْأَشْرَاطُ: يَعْني الْعِلَامَاتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البَقَرَةُ: ٢١٠] وَقَتُ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. أَمَّا الْعِلَامَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمَعْلُومَةٌ، مِنْهَا مَا هُوَ كَبِيرٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ صَغِيرٌ، وَمِنْهَا مُتَوَسِّطٌ، وَقَدْ حَدَّثَ الْكَثِيرُ مِنْهَا، وَبَقِيَ الْعِلَامَاتُ الْكِبَارُ، وَقَدْ أَلْفَ الْعُلَمَاءُ مُؤَلَّفَاتٍ كَثِيرَةً فِي ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ^(١)، وَعِلَامَاتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا عِلْمٌ يُدْرِكُ مِنَ النَّصُوصِ وَالْأَدِلَّةِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا» فَلَمَّا كَانَ السُّؤَالُ عَنْ عِلَامَاتِهَا جَائِزًا

(١) ومن المصنفات في أشراط الساعة: (صفة أشراط الساعة) للسرخسي، (القناعة فيما تمس الحاجة من أشراط الساعة) للسخاوي، (الإذاعة) لصديق حسن خان، (إتحاف الجماعة فيما ورد في أشراط الساعة) للشيخ حمود التويجري رحمه الله، (أشراط الساعة) ليويسف عبدالله الوابل، (القيامة الكبرى) للدكتور عمر سليمان الأشقر.

أَجَابَهُ ﷺ، فَذَكَرَ عَلَامَتَيْنِ: قَالَ: «أَنْ تِلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا» هَذِهِ وَاحِدَةٌ، وَمَعْنَى تِلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا أَيْ سَيِّدَتَهَا، تَكُونُ الْأُمُّ مَسُودَةً وَالْبِنْتُ سَيِّدَةً لَهَا، هَذَا مِنْ الْعَجَائِبِ، أَنَّ الْبِنْتَ تَكُونُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا، فَمَا مَعْنَى هَذَا؟ ذَكِّرُوا مَعْنَيْنِ (١):

المَعْنَى الْأَوَّلُ: أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْثُرُ التَّسَرِّي فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ بِنْتَ الْأُمَّةِ تَكُونُ حُرَّةً تَبَعًا لِأَيِّهَا، فَالْبِنْتُ حُرَّةٌ، وَالْأُمُّ أَمَةٌ، فَتَكُونُ الْبِنْتُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا.

المَعْنَى الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ يَكْثُرُ الْعُقُوقُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى كَأَنَّ الْبِنْتَ تَكُونُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا، بِأَنْ تَتَكَبَّرَ عَلَيْهَا وَتَعُقَّهَا وَتَغْصِبَهَا.

الثَّانِيَةُ: قَالَ: «أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ» يَغْنِي الْبَادِيَةَ، هَذِهِ صِفَاتُ الْبَادِيَةِ، حُفَاةٌ أَقْدَامُهُمْ، عُرَاةٌ أَجْسَامُهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا تَكُونُ مُتَوَاضِعَةً أَوْ ثِيَابًا لَا تَسْتُرُ جَمِيعَ أَبْدَانِهِمْ بِسَبَبِ الْفَقْرِ، أَوْ عَدَمِ الْعِنَايَةِ بِالْمَلَابِسِ؛ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الْأَعْرَابِ، لَيْسَ مَعْنَاهُ التَّعَرِّي، وَلَكِنْ

(١) اختلف أهل العلم في تفسير هذه الجملة على سبعة أقوال، لخصها الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/١٢٢، ١٣٣) في أربعة، وارتضى منها واحدًا، فقال: «أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته؛ من الإهانة بالسب، والضرب، والاستخدام، فأطلق عليه ربهًا مجازًا لذلك، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومحصله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربي مربيًا، والسافل عاليًا، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: أن تصير الحفافة ملوك الأرض».

مَعْنَاهُ أَتَهُمْ لَا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا جَمِيلَةً، وَثِيَابًا فَاحِشَةً، إِنَّمَا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا مُتَبَدِّلَةً، أَوْ ثِيَابًا قَصِيرَةً، أَوْ عَلَى غَيْرِ الثِّيَابِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي تَجُمِّلُ الْإِنْسَانَ.

قَوْلُهُ: «رِعَاءَ الشَّاءِ» هَذَا عَمَلُهُمْ أَنَّهُمْ رِعَاءٌ يَرْعُونَ الشَّاءَ وَالْإِبِلَ، وَهَذِهِ طَبِيعَةُ الْبَادِيَةِ يَعِيشُونَ عَلَى تَرْبِيَةِ الْمَوَاشِي هَذِهِ تِجَارَتُهُمْ وَمَعِيشَتُهُمْ، وَيَعِيشُونَ فِي الْبَرَارِي، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ يَتَحَضَّرُونَ، وَيَسْكُنُونَ الْحَاضِرَةَ وَيَبْنُونَ، كَانُوا بِالْأَوَّلِ يَسْكُنُونَ فِي الْخِيَامِ وَفِي بُيُوتِ الشَّعْرِ، فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْمَبَانِي، يَبْنُونَ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي الْمَبَانِي، وَرُبَّمَا يَبْنِي الطَّوَابِقَ الْكَثِيرَةَ الْعَالِيَةَ وَيُزَيِّنُهَا وَيُحَسِّنُهَا، وَهُوَ كَانَ فِي الْأَصْلِ يَسْكُنُ فِي بَيْتِ شَعْرِ أَوْ خِيْمَةٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ حَالُهُمْ، هَذَا مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ «يَتَطَاوَلُونَ فِي الْمَبَانِي»؛ كَمَا هُوَ وَقَعَ الْآنَ مُضْدَاقًا لِقَوْلِهِ ﷺ، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ سَكَنُوا الْمَدْنَ وَصَارُوا يَتَبَاهَوْنَ فِي الْمَبَانِي، كُلُّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَحْسَنَ مِنَ الْآخِرِ فِي بِنَائِهِ، وَمَظْهَرُهَا، وَازْتِفَاعُهَا، فَهَذَا مِنْ عِلَامَاتِ وَمِنْ مُعْجَزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ: «ثُمَّ انْطَلَقَ» أَي: قَامَ السَّائِلُ وَخَرَجَ، فَخَرَجَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فِي أَثَرِهِ فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَهَذِهِ عَجِيبَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَيَسْأَلُ وَيَتَكَلَّمُ، وَفِي لَحْظَةٍ اخْتَفَى عَنْهُمْ.

قَالَ: «اتَّذَرُونَ مِنَ السَّائِلِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» هَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَكَ لَا يَأْتِي فِي صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَاهُ عَلَى صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَأْتِي فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ؛ حَتَّى لَا يَنْفَرِ النَّاسُ مِنْهُ، وَغَالِبًا مَا يَأْتِي جِبْرِيلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي

صُورَةَ رَجُلٍ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ^(١)؛ كَسَائِرِ السَّائِلِينَ وَالطُّلَابِ لَا يَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ؛ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَنْفَرُوا.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَشَكَّلُ بِأَشْكَالٍ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ، وَقَدْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْبَشَرِ. وَالنَّاسُ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا عِنْدَ الْعَذَابِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ تَظْهَرُ الْمَلَائِكَةُ وَيَرَاهُمُ الْمُخْتَصِرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَالنَّاسُ يَرَوْنَهُمْ فِي صُورٍ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ صُورِ النَّاسِ.

لَكِنْ لِمَاذَا جَاءَ جِبْرِيلُ؟ وَلِمَاذَا جَلَسَ؟ الْجَوَابُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَنَا كُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، فَهُوَ لَا يَسْأَلُ لِيَتَعَلَّمَ، وَإِنَّمَا يَسْأَلُ لِيُعَلَّمَ، فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ وَالْجَوَابَ مِنْ طَرِيقِ التَّعْلِيمِ، بَلْ مِنْ أَبْلَغِ طَرِيقِ التَّعْلِيمِ أَنْ يَكُونَ عَنْ طَرِيقِ السُّؤَالَ وَالْجَوَابِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ تَرْبِيَةٍ جَيِّدَةٍ مَعْرُوفَةٍ.

قَوْلُهُ: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يُؤْخَذُ بِالتَّعَلُّمِ، لَا يُؤْخَذُ مِنَ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالبِدْعِ وَالمُخَدَّنَاتِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ، بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ:

- الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: الْإِسْلَامُ وَأَزْكَاهُ خَمْسَةٌ.

(١) جاء في بعض الروايات أن جبريل - عليه السلام - يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، أخرج هذه الرواية النسائي في الكبرى (٥٢٨/٦)، وفي المجتبى (١٠١/٨، ١٠٢)، وابن راهويه في مسنده (٢٠٩/١، ٢١٠) من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما، يُراجع: الدر المنثور (٦٤٦/٧) حيث قال النبي ﷺ: «وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية».

- المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ فَوْقَهَا: الْإِيمَانُ وَأَزْكَاهُ سِتَّةٌ.
- المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ - وَهِيَ أَغْلَاهَا: الْإِحْسَانُ وَهُوَ رُكْنٌ وَاحِدٌ، «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وَفِي هَذَا الْحَثِّ عَلَى تَعَلُّمِ الدِّينِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ دِينَهُ، لَا يَكْتَفِي أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُسْلِمٌ، لَا بَدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا هُوَ الْإِسْلَامُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤَدِّيَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَتَسَبَّبَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَوْ سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَامِ لَقَالَ: أَنَا مُسْلِمٌ وَلَكِنْ لَا أَدْرِي مَا هُوَ الْإِسْلَامُ. وَهَذَا مِنَ الْعَجَائِبِ، كَيْفَ يَكُونُ مُسْلِمًا وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا هُوَ الْإِسْلَامُ؟ هَذِهِ مُشْكِلَةٌ، فَقَدْ يَقَعُ فِي شَيْءٍ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَدْرِي، أَوْ يَتْرَكَ شَيْئًا يُحِلُّ بِالْإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، أَوْ يَفْعَلُ شَيْئًا يَتَنَافَى مَعَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَدْرِي؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْإِسْلَامَ. فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ تَعَلُّمِ الدِّينِ بِمَرَاتِبِهِ: الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
مكانة هذا الحديث وأهميته	٥
جلوس الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ يتعلمون منه	٦
جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة رجل	٦
رأى النبي ﷺ جبريل في صورته الملكية مرتين	٧
آداب مستفادة لطالب العلم من هيئة وجلوس جبريل عليه السلام	٨
لا يكفي الانتساب للإسلام دون معرفة حقيقته	٩
الأركان الخمسة للإسلام	٩
التعريف العام للإسلام	١٠
معنى الركن الأول وتلازم الشهادتين	١١
معنى «أشهد أن لا إله إلا الله»	١٢
معنى الإله المعبود «لا معبود بحق إلا الله»	١٢
معنى «أشهد أن محمداً رسول الله»	١٣
الاعتراف برسالة ﷺ يكون ظاهراً وباطناً	١٣
لا تصح الشهادة بأن محمداً رسول الله بدون متابعة	١٤
من معاني الشهادة تصديقه ﷺ	١٥
الركن الثاني: إقام الصلاة، ومعنى إقامتها	١٦
الركن الثالث: الزكاة، وهي حق واجب فرضه الله عز وجل	١٨
الركن الرابع: صوم شهر رمضان من كل سنة	١٩

شرح حديث جبريل عليه السلام

٦٥

الموضوع	الصفحة
الركن الخامس: حج بيت الله الحرام	٢٠
معنى الحج لغة وشرعاً	٢٠
تعريف الاستطاعة	٢٠
تعريف الإيمان لغة وشرعاً	٢١
الإيمان عند أهل السنة والجماعة	٢٢
الإيمان قول وعمل واعتقاد	٢٢
اجتماع الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن	٢٣
تعريف الركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله جل وعلا	٢٥
الإيمان بالله يشمل أنواع التوحيد الثلاثة	٢٥
تعريف توحيد الربوبية	٢٥
تعريف توحيد الألوهية	٢٦
تعريف توحيد الأسماء والصفات	٢٧
مذهب السلف في توحيد الأسماء والصفات	٢٨
الركن الثاني: الإيمان بالملائكة	٢٨
تعريف الملائكة وأصنافهم والإيمان بأعمالهم التي ذكرها	
الله عز وجل	٢٨
انحراف بعض الطوائف في الملائكة	٢٩
الركن الثالث: الإيمان بالكتب المنزل	٣١
الركن الرابع: الإيمان بالرسول من أولهم إلى آخرهم	٣١
الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر	٣٢

شرح حديث جبريل عليه السلام

٦٦

الصفحة	الموضوع
٣٢	أسماء اليوم الآخر.....
٣٢	من الإيمان باليوم الآخر الاستعداد له.....
٣٣	الرد على منكري البعث قديماً وحديثاً.....
٣٦	المراد باليوم الآخر «ما بعد الموت كله».....
٣٦	القبر أول منازل الآخرة وسؤال الملكين.....
٣٨	تواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه.....
٣٩	أنواع الدُّور وترتيب ما يحصل بعد الموت.....
٣٩	من الإيمان بالبعث: الإيمان باليوم الآخر.....
٣٩	من الإيمان بالبعث: الإيمان باليوم الآخر وصفة المحشر.....
٤٠	الحساب وأنواعه في حق المؤمنين.....
٤٠	هل يحاسب الكافر.....
٤١	الوزن.....
٤١	نصب الموازين والرد على المعتزلة.....
٤٢	تطابير الصحف.....
٤٢	المرور على الصراط.....
٤٣	القصاص بين المؤمنين تهدياً لهم لدخول الجنة.....
٤٣	الركن السادس: الإيمان بالقدر.....
٤٣	تعريف القدر.....
٤٤	مراتب القدر.....
٤٥	أثر الإيمان بالقضاء والقدر.....

الموضوع	الصفحة
أفعال العباد والرد على الجبرية.....	٤٨
أهل السنة والجماعة وسط بين الجبرية والقدرية.....	٤٩
الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.....	٥٠
حكم مرتكب الكبيرة.....	٥١
وسطية أهل السنة بين المرجئة والخوارج والمعتزلة.....	٥١
تعريف الإحسان.....	٥٣
الإحسان بين العبد وربّه.....	٥٤
الله جل وعلا لا يُرى في الدنيا.....	٥٤
ثبوت رؤية الرب جل وعلا في الآخرة للمؤمنين.....	٥٥
أثر مرتبة الإحسان على المؤمن.....	٥٦
الدين يتفاضل.....	٥٦
الإيمان باليوم الآخر يوجب العمل والاستعداد له.....	٥٧
علم الساعة عند الله عز وجل وحده.....	٥٨
ليس من الحكمة السؤال عن الساعة، بل الحكمة السؤال عما	
تعمل لها.....	٥٨
علامات الساعة وذكر النبي ﷺ علامتين من علاماتها.....	٥٩
معنى أن تلد الأمة ربتها.....	٥٩
تشكل الملائكة بأشكال حسب المصلحة.....	٦٢
سبب مجيء جبريل عليه السلام كما بينه النبي ﷺ.....	٦٢

* * *